الفصل الرابع عشر

الأخدود

قمت بزيارة قصيرة للأخدود، كما ذكرت سابقاً، برفقة الأمير، في السابع والعشرين من يونيو، بالسيارة عبر الوادي إلى حضن ثم متابعة جانب الوادي الأيمن إلى نخيل قابل، ثم عند السهل الصحراوي إلى الأطلال. أما هذه المرة سرت راجلاً، في اليوم الثلاثين من يونيو، متخذاً الطريق المباشر، وبرفقتي فرج ودليل محلي، بينما تحركت بقية المجموعة مع العفش والخيام -التي تم استلافها من مستودعات الأمير- على الطريق المباشر نفسه ولكن في وقت مبكر لكي يستقروا في المعسكر، انتظاراً لقدومنا.

كان هنالك الكثير الذي مررنا به في الطريق والذي يستحق التأمل، ولذلك لم نصل إلى المكان الذي ستنتهي إليه الرحلة إلاَّ بعد المغرب. قادنا الطريق المباشر تجاه الشرق إلى حيث توجد مجموعة مزارع نخيل تسمى في جملتها مخابي وتمثل قرية للأشراف من منطقة جنوب الجوف، كان المستوطن المهاجر الأصلي فيها هو الشريف حسين بن قيثية. لا يوجد ما هو ملفت للأنظار في مزارع النخيل أو القصور الملحقة بها، إلاَّ أن هذه القصور تبدو وكأنها منازل سكنى عادية وليست حصونات ربما لأن الأشراف كانوا من أقرباء الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعليه فهم خارج منطقة النزاعات القبلية ويعتبرون مقدسين لدى أتباعهم وكانت القصور في معظمها من طابقين. كانت المزارع صغيرة، ولكن تتلقى العناية والاهتمام بدرجة جيدة، مع نزعة إلى زراعة إضافية. إن «مخابي» هي صيغة الجمع «مخبأ»

اسم أبرز مـزارع النخيل والتي تشـمل صنعاء، وصـعدة، وخبـية، وقليلـة، وبير مرشد، وعويرة، وعضبة.

سرنا بـعد ذلك عبـر بطن الوادي العـريض الرملي، التي بلا شك لا تصلح للسيارات، حتى وصلنا إلى مجـموعة من قصور قبلية منتشرة فوق مسـاحة معتبرة من مزارع نخـيل مهـملة وبساتين تين، تسـمى اللجام، تقع عند الطـرف الشرقي لمزارع نخيل القابل الكثيفة. تمتد واجهـة نخيل قابل على يميننا في خط مستقيم في اتجاه غرب الجنوب الغربي تجاه ابو حمدان، غير أن الجانب الأيمن للوادي يلتف هنا ناحية شمال الشمـال الشرقي إلى حيث توجد مزرعة نخيل صغيـرة وكثيفة تسمى سلوة على قمـة جبل مميزة على بعد نصف الميل، ومن عندهـا يجري الوادي تجاه الشرق. تقع قصـور ونخيل قريتي مقشّـبة وجديدة (الشيـبان) بين اللجام وسلوة، ولكن إلى الداخل أكثر.

انطلقنا إلى داخل الجسم الرئيس لمزارع نخيل القـابل إلى الموقع القديم لسوق الخميس، والذي هُجر ونقلت كل التجارة المنظمة إلى مقر قصر أبالسعود. لا يزال هذا السوق القـديم يحتفظ ببقـايا من صف من المتاجر على الجـانب الشرقي لمربع السوق، ومن خلفه مـنظر جمالي لواجهة مـساحة خالية كـبيرة تحيط بهـا أشجار النخيل، وكان يـقـــام أصلاً تحت حمـــاية ابن منيف، شيخ قـبيلة آل الهندي التي تمتلك معظم أراضي قـابل. تعتبر تجمـعات السوق، المفتوحـة لكل من يحضرها، أمراً مقدساً غير أن الروايات تحكي عن مقابلات الأعداء العشوائية التي لا مفر منها قد يتم التدبير لها في مثل هذه المناسـبات، وينتج عن ذلك معارك تقود إلى سفك دماء أكثـر يكفِّر عنها بعداوة جديـدة. ربما مـثل هذه الملابسـات هي التي أكسـبت المكان هذا الإحساس بالغموض.

خرجنا من مزارع النخيل لندخل إلى سهل صحراوي كبير يمتد إلى الوراء إلى قاعدة تكوّن جزءاً من الجانب الأيمن للوادي، الذي انتشرت حول أطرافه وبالقرب من حزام النخيل، بعض الآبار التي ألحق بها قصر ومزرعة نخيل صغيرة، مثل: بئر سلطانه التي تقع في طريقنا، وبئر منهل –حيث توجد حقول ذرة صفراء ولا يوجد نخيل–، ومكرمانة، وبئر الدولة وغيرها. وصلنا إلى معسكرنا، على مسافة قصيرة من عند بئر سلطانه، وقد أقيم في أرض مكشوفة بجوار بئر وقصر ابن ثامر في إخراج جميل بين سبعة أشجار جميلة ظليلة من السدر، والتي يعزى بقاؤها لحقيقة أنها تقف على مقبرة عبدالله بن ثامر وتلامذته والمعجبين به خصصت الحكومة القصر الآيل للسقوط لإيواء قوة شرطة صغيرة تحت قيادة شخص يسمى صالح وهو من أبناء حائل، والذي برهن على أنه مضيف لطيف ومساعد لنا أثناء إقامتنا القصيرة.

استبشرنا بالفأل الحسن الذي استقبلنا به فور وصولنا إلى المعسكر فقد وصل في اللحظة نفسها رجل أرهقه السفر من أبناء وادي الفرع، وهو يسوق أمامه حماراً محملاً بصندوقين من النوع الذي تشحن فيه شركات النفط صفيحتان كيروسين عبوة أربعة جوالين. غير أن محتويات الصناديق كانت عنباً طازجاً تم جنيه في صباح اليوم نفسه من مزارع عنب وادي الفرع لأجل تسويقه بسوق الخميس بنجران. لم تصل البضاعة إلى محطة الوصول بالطبع فقد كمن رجالي للقادم من الفرع وأحضروه إلى خيمتي حيث طلب ثلاثة ريالات للصندوقين، كل منهما يحتوي على ٢٠ كيلوجراماً (تعادل ٤٥ رطلاً) من هذه الفاكهة اللذيذة، وذهب في حال سبيله داعياً لنا ببركات ابن ثامر فوق جبيني حينما ناولته أربعة ريالات. علماً بأن الريال بقيمة سدس فقد تحصلت على ٩٠ رطلاً من عنب ممتاز بمعنى

الكلمة مـقابل ستـة جنيهات، أو أقل من البنـس الواحد للرطل. احتـفظت بأحد الصندوقين لاستـعمـالي الخاص وأي ضيـوف ربما يزورنني في هذا المكان وناولت الصندوق الآخر ليقتسمه أفراد مجموعتي.

يعتقد أنه يمكن الوصول إلى وادي الفرع ومزارع عنبه خلال رحلة يوم واحد، وسفراً مـريحاً على الأقدام، وذلك عن طريق وادي ابن ثامر من نجـران، ثم عبور الحدود عـلى مسافـة ١٠ أو ١٢ ميـلاً إلى جنوب الأخـدود. كان صالح، قـائد الشرطة، قد خدم تحت قيادة ابن رشيد، وقـد حارب ضد قوات الملك عبد العزيز في الحروب التي قادت إلى سقـوط حائل عام ١٩٢١م، ومنذ ذلك الوقت ظل في خدمة ابن سعود.

كانت مشكلته الوحـيدة في نقطة المراقبة النائية لهذه الإمـبراطورية السعودية، هي أن راتبه الشـهري ظل يتأخر ولـعدة شهور وأن ابن ثامـر الذي أزالت القوات السعودية ضريحه، بالمناسبة، ضم نجران عام ١٩٣٤م، كان الفقيه المناصر للبعوض. إذ يقع اللوم بتكاثر البـعوض على البـئر المظللة بأشجـار السدر بجـوار الضريح. كانت ظروف الطقس في نجران في هذه الفترة مـتأثرة بالرياح الموسمية حيث تكون الليالي كثيفة السحب والنهار بارداً، ولكن بلا أمطار عدا قطرات قليلة من حين لآخر، علماً بأنه قد يشاهد البرق على بعد مع دمدمة للرعد، من حين لآخر.

لم أستنزف كثيرًا من وقت صبـاح اليوم التالي، إذا أسرعت بالشروع في دراسة أطلال الأخدود غير أن أعمالي قد أعيقت بوصول سلطان بن منيف وحفيده حمد من عند معسكرهم فـي وادي اسقام على مسافـة ناحية الشرق. دعوناهمـا لتناول وجبة الغداء معنا وقبلنا دعوتهما لنا بزيارتهـما يوماً ما أثناء وجودنا هنا. كان سلطان رجلاً

كبير السن، غير أنه رجل مشهور بأنه رئيس لمجموعة جشم التابعة ليام، والتي هي الأكبر من حيث مساحة الأرض من بين المجموعات القبلية الثلاثة، وتأتي المواجد في المكان الثاني بالنسبة للأهمية ثم آل فاطمة. يبدو أن جابر أبا ساق رئيس المجموعة الثالثة، قد أمكن نفسه من السيطرة الشخصية على قبيلة يام كلها ولربما كان أهم شخص في نجران كلها في هذا الوقت. كان لسلطان ثلاثة أبناء، سالم أكبرهم، وهو في هذا الوقت في نجران حيث يقوم بالإنابة عن والده في كل الأمور الخاصة في مجالس المقاطعة. ذهب شقيقاه أحسن وكديسي إلى زيارة ابن سعود في الرياض، وورد أنهما قد وصلا إلى هناك على التو بعد رحلة بالجمال استغرقت ٢٢ يوماً عن طريق وادي الدواسر.

كان الزائر الثاني لمعسكرنا هو يوسف اليهودي الذي أحضر معه حجرين مكتوبين. كان أحدهما يحمل نقوشاً حميرية، أما الآخر فيبدو أنه كان مسروقاً من مقبرة حديثة نظراً بما عليه من كتابة عربية عادية، وقد أخذت لهما صورة. قضى يوسف معنا الليلية ليستمع إلى نشرة الأخبار من القدس، لقد رفض الإذاعة العبرية بأنها تأملية النزعة وبأنها «اشكنازي»، وواضح أنه يعاني من صعوبة ما في فهمها، برغم أنه ورفقاؤه يتكلمون ويكتبون العبرية فيما بينهم، وبالطبع لم تكن لديه صعوبة في تفهم الأخبار باللغة العربية.

ساء الطقس في وقت متأخر من العصر وغطت الأجواء غيوم كثيفة غربية إلى الوادي يحملها نسيم جنوبي غربي لطيف. هجمت علينا العاصفة، حينما كنت أنا ويوسف نستمع إلى الأخبار، وكانت محملة بالرمال وكانت تضرب الخيمة بل ونزعت حتى الغطاء الخارجي لها. اتجهت العاصفة ناحية الشمال وعادت مرة

أخرى نحونا وبقوة مـخيفة أكثر حوالي الساعـة ١١ ليلاً وظلت تضربنا مدة نصف ساعة لتنتهي بمطر غامر ولفترة قصيرة، ربما كان مقياسها عُشر البوصة. كانت ليلة قبيحـة تماماً غير أن الفجر بزغ في لطف يصحـبه نسيم غربي وسحب خفيـفة غير أنني رأيت أن أوجه اللوم لرفاقي، الذين كانوا مشـتغلين بالعناية براحتهم هم دون السؤال عني خلال العاصفـة، وعن الفوضى التي يبدو أنها رافقت وتلت اضطراب الليلة.

سرعان ما واصلت جـولاتي حول الأطلال ونسيت كل شيء عن رفاقي وعن عبـثهم الطـفولي. وجدت زائـراً آخر ينتظرني عندمـا عدت إلى المعـسكر لتناول الغداء. كان ذلك الزائر هو جابـر أبو ساق شخصياً الذي كان في قـصر أبالسعود لمناسبة سـوق الخميس وجاء الآن ومـعه تابع معاق عرضـه عليَّ على أمل أن أقوم بعلاجه، كان عليَّ أن أخذله بإقراري أنه ليس لديَّ الدواء ولا لديَّ المعرفة بالطب. كان ملحاحاً يريد أن يعرف كل شيء كنت أفـعله بقطع الزجاج والفخار التي كنت أجمعها وكـانت إجابتي له أنني سأكون سعيداً لو قـبلها كلها هدية مني له! أربكته هذه الإجابة واتجه إلى ما بدا أنه السبب الرئيس لزيارته، وهو أنه يريد أن يعرف ما الذي تحدث عنه ابن منيف، الذي كان يغار منه كثيراً. أخبرته أن ابن منيف دعاني للغداء، وحينها اقـترح جابر عليَّ أن اتغدى معه أيضاً، وأجبتـه على الفور بقبولي الدعوة وحـددت معه مـوعداً مبـدئياً بعد عـودتي إلى قصر أبالسـعود، ذلك لأنه يعسكر في سهل سعيد في أرض منجَّم.

وصل منيف على ظهر فـرسه من السوق وشاركنا هـو ومرافقه وجبـة الغداء واستمتعـوا معنا بالعنب والقهوة فيما بعد، كمـا قد أرسل لنا الأمير بكرم، نصف صندوق من العنب دون أن يعلـم بالكميـة التي لدينـا والتي لم تسـتهلك بعـد.

ناقش معنا كل شيء، غير أنني وجدت أن جابر كان أكثر مقدرة على الحديث من ابن منيف، أو على الأقل أكثر منطقاً. كان بالطبع أصغر من غريمه المكروه بعشرين سنة، وأعتقد أنه يبلغ من العمر ٥٥ أو ٦٠ سنة. كان بالطبع ودوداً بالرغم مما يعكسه مظهره من شكوك وحذر. كان، كما قال، أنه الوحيد على قيد الحياة بين أبناء والده، وأنه هو أب لخمسة أبناء تتراوح أعمارهم بين ١٥ سنة وأقل، ذلك لأن كل أبنائه الكبار قد توفوا. لقد تزوج فقط من خمس نساء خلال حياته، ومعه الآن ابنان يعيشان معه وقد أنكر بقوة القصة التي تقول أنه كان من عادة قبائل نجران ذات يوم، أن تقدم للضيوف النساء. كانت هذه الفكرة مخيفة له بصدق. لم يفعل هذا الأمر الشائن المكارمية، كما قال، ولا حتى اليهود، قالها وكأنه قد حسم الأمر.

يجب عليَّ أن أقر بأنني لم أكتشف أي إثبات لعمل مثل هذا في هذه الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، والتي تدور حولها قصص مثل هذا القبيل في الشمال. لا يمكن أن تكون ذلك حقيقة وذلك يعزى إلى أن الزواج في الجزيرة العربية يعد بالأمر السهل، وكذلك الخروج منه، فإن اعتبارات مثل هذه لراحة الضيوف لا ضرورة لها. أخبرني جابر، فيما أخبر عنه، عن قصة رجلين من أبناء بلاد سنحان في اليمن، كانا قد هربا من تلك البلاد واحتميا بقبيلته هو، آل فاطمة. جاء له بإشاعة تقول أن هنالك كنز مدفون في قمة تل يسمى ميحار، وفي تجربة للأمر قام نشمي بإرسالهما لتبين إمكانية معرفة طريق للسيارات يقود إلى سفح التل حيث الكنز، وأنهما قد وجداه. لم أكن أدري أنني، وقبل أن يمضي وقت طويل سأكون سالكاً ذلك الطريق لكي أنفي أسطورة ميحار هذه كما قد أوردت ذلك في كتاب: بنات سبأ. إنه لمن المدهش أن أجد في مذكراتي

ملاحظة حول ما قاله جابر حول الموقع، وأن أشيد بالدقة التي نقل بها جواسيسه المعلومة، والكيفية التي هضم بها هو هذه الحقائق.

زارني رجل كبير السن، بعد مغادرة جابر، يسمى حمد بن شقات، من أتباع ابن منيف، تشغله فكرة تدور في رأسه ربما حول زيارتي غير المفهومة لهذه الأنحاء، تقوده للاعتقاد بأن الحكومة السعودية تسعى لطرد سكان نجران وإعادة استعمار الموقع بقوم أفضل![1] رافقني هذا الزائر إلى السهل إلى حيث تقبع مقبرة قديمة خالية من النقوش وربما يعود تاريخها إلى العصور الوسطى، إلى عند قمة تسمى جبل السودة، وإلى جوارها سلسلة جبل حمرة ذات القمم المتعددة والتي تسد الوادي من هذه الناحية وتكوِّن جرفاً عالياً ينحدر من ورائه وادي اسقام الواسع عبر خليج عريض في الجبال ليصل إلى وادي نجران عند رجله. كانت أسرة حمد تعسكر عند سفح جبل حمرة وكان حمد يحاول إغرائي للذهاب إلى هناك لغرض في نفسه، إلاَّ أن الوقت كان متأخراً، وكانت هنالك نذر عاصفة ثانوية في الأفق، لذا عدت إلى المعسكر وقد لاحظت بعضاً من علامات النقوش على سفح جبل السودة ولاحظت مبانٍ على قمته ويبدو الأمر كأنه يستحق الدراسة مستقبلاً.

لا بد وأن تكون أمطار الليلة الماضية قد كانت عنيفة في الجبال أكثر مما هي في وادي نجران، ذلك لأنه اندفع سيل ضخم خلال ساعات النهار عبر المجرى إلى رجلة وعطل كل وسائل الاتصال مع جانب الوادي الشرقي، رغم أن عمق الماء

(١) كان هذا التخوف موجوداً باعتبار ما تعود عليه أهالي المنطقة في الماضي بينما بثت لهم عكس ذلك في عهد الملك عبد العزيز الذي عزز مكانة الأهالي وجلب لهم الأمن والاستقرار. (المراجعون).

كان يصل فقط إلى مستوى الركبة، وكانت بعض الأجزاء أكثر عمقاً عن ذلك. هبت رياح قوية لمدة ساعة وذلك قبل غروب الشمس وكانت السماء ممتلئة بالسحب عند قدوم المساء، غير أن المطر حتى حينها كان بعض قطرات. ثم بدأ البعوض الآن يكوِّن إزعاجاً لنا أكثر، حول المعسكر، كما أزعجتنا قطة سوداء، والتي ربما قد اكتشفت نشاطاتي في عالم الطيور وجاءت تتحرى الأمر! كما كان هنالك زوج من الكلاب يبحث عن العظام التي خلّفها عشاء الأمس وقد رأيت عند منتصف الليل ثعلباً يتجول حول المعسكر.

خصصت اليوم التالي لأجل أن أقوم بزيارة لمعسكر ابن منيف، غير أن جابر ابن نصيب جاء على ظهر حصانه قبل انطلاقتنا ليتأكد إن كنا فعلاً ذاهبين إلى المعسكر المنافس. لم أضيع كثير وقت معه، غير أنني رأيت أن أخبره بأنه سيكون هنالك كسوف للقمر في الليلة التالية.

يبعد معسكر ابن منيف مسافة أربعة أميال شرقاً بالقرب من قصرين صغيرين مدمرين يسميان هفوف وكويخ بجوار مزارع نخيل عمایر، وذهبنا إلى هناك على ظهور الحمير لقضاء يوم مثير للاهتمام في وسط أسرة ابن منيف. كان الحضور إلى جانب سلطان -الرجل المسن- ابنه الأكبر سالم ومعه ابنه الصغير سلطان، على اسم جده، كان كل من حمد وصالح، ابنا إحسان وكديسي حاضرين معنا هنا. كانت رحلتهما إلى الرياض، كما علمت الآن، لأجل تصفية نزاعات أراضٍ معينة كان قد رفع أمرها إلى الملك. مجموع أعضاء الفريق إلى الرياض يصل إلى ١٢ شخصاً من قسمي مرغان وصقر. كان الأطفال جذابين بحق، وازداد عددهم عند اقتراب موعد العشاء.

يجب أن أضيف إلى من ذكرت إحسانًا وهو ابن سالم، وسلطانًا ومحمدًا وهما الابنان الأصغران لإحسان وعددًا من أطفال صغار هم أحفاد الرجل المسن وأخواله كان حشداً جيداً وكان أيضاً أكولاً.

قدم لي كل من سلطان وسالم معلومات قيمة جداً حول القسم الشرقي لواحة نجران والأحوال القبلية بصفة عامة. كان أصل القبائل بالطبع، هو يام، التي تفرعت إلى مجموعتين رئيستين هما جشم ومذكر وانقسم الأخير إلى المواجد وآل فاطمة. يتفرع الأول منهما مرة أخرى إلى آل رزق وآل سلوم، وآل الحارث[١]. كان فخذ سلطان الخاص هو، آل هندي بالطبع، فخذ جشم[٢]. ولسلطان شقيق واحد لا يزال على قيد الحياة، يسمى حمد، بينما توفي الخمسة الآخرون وهم: حمد، ومحمد، وكديسي، وعبدالله، وعلي، يمثلهم معظم النسل الذي ظل على قيد الحياة، مكوِّنين بذلك قبيلة منيعة. يستطيع سلطان نفسه أن يؤرخ شجرة نسبه إلى ١٧ أو ١٨ جداً، وهي فترة لا يمكن تقديرها بأقل من ٥٠٠ عام. قد يكون من المفيد تسجيل ذلك لفائدة بعض القراء.

سلطان بن حسن بن حمد بن حسن بن منيف بن محمد بن بطين بن عبدالرحمن بن سلطان، بن سالم بن مقاتل بن صعيب بن هندي بن ضال بن جشم بن يام بن يصبع بن حمدان[٣] بن زيد. لقد ميزت اسم سلطان (بالخط

(١) هذه ليست أقسام فخذ المواجد ويمكن الرجوع إلي فؤاد حمزة في بلاد عسير (الرياض) ١٣٨٨هـ ، ط٢ .

(٢) ويسمي أيضا « أجشم » (المراجعون)

(٣) يوجد ما يفيد بأن حمدان عاش في القرن الثاني قبل الميلاد وعليه فهنالك كما يبدو، فراغات كثيرة في هذه الشجرة التقليدية. (المؤلف)

obeikan.com

المائل) وسلفه الذين تتوارث أسماؤهم في الأقسام القبلية المعاصرة. يبقى أن أشير إلى أن جشم القديمة هي جشم الحديثة.

أحضر الخدم حصيرة كبيرة وقحفاً خشبيّاً كبيراً ممتلئاً بعصيدة قمح وحساء، بينما كنا جالسين على أطراف خيمة سلطان ذات البساط الجيد، نتجاذب أطراف الحديث حول هذه المواضيع. خطر بذهني أنها صورة الكرم الضعيف لهذا المنزل العريق غير أنني كنت جائعاً وكانت العصيدة، مع شكلها غير المثير للشهية، لذيذة، وتسمى معصوباً وأكلت حتى شبعت.

كنت على وشك أن أغادر الحصيرة وعلى طرف لساني كلمات الشكر حينما أوقفني مضيفي قائلاً لي أن أنتظر اللحم. دخل الخدم لرفع قحف العصيدة من وسطنا ثم قاموا بوضعه مرة أخرى أمام ضيوف آخرين ذوي درجة اجتماعية أقل منا ومن بعدهم وقد قلّت كمية العصيدة، نقلتها إلى مجموعة أطفال الدار حتى شبعوا وأمروا بالذهاب إلى جناح النسوة بالخيمة وتفصله عن جناح الرجال ستارة فقط. كان الحساء مصنوعاً من لحم ضأن بالأسلوب العادي غير أنه هذه المرة أضيف له العسل والسمن، وكان مذاقه طيباً.

وضعت أمام الضيوف الرئيسين سلتان كبيرتان مملوءتان بأوصال كبيرة من اللحوم والتي أقبلنا عليها بدعوة من مضيفنا بعزيمة برغم ما تناولناه من عصيدة. كان اللحم ناشفاً لكنه ذا مذاق، وشاركنا في هذا الجانب من الوجبة كل من سلطان الرجل المسن وسالم وحمد الشقات، وكان الرجل المسن يقوم باختيار قطع معينة من اللحم ليناولها للأطفال أثناء مغادرتهم، واعترافاً لجهده فقد كان يناولهم الأجود من اللحوم. ابتعدنا عن الحصيرة (السفرة) بعد أن انتهينا من الأكل، غير

أن الرجل المسن وسالماً ظلا ينهشان ما تبقى من لحم وافر، الذي كان مصدره ست ذبائح ضأن وكانوا يناولونه إلى تابعيهم الجالسين من حول الخيمة. ظل بعض التابعين جالساً هناك يعرش اللحم من العظام باستمتاع واضح، بينما غادر البعض منهم المكان حاملين معهم اللحم إلى مساكنهم، ربما للمشاركة مع زوجاتهم وبقي آخرون وقد وضعوا اللحم بجوارهم إلى حين أكله أو حمله في وقت لاحق.

كانت هذه أول تجاربي مع هذا الضرب من المأدبة الذي أصبح بعد ذلك شيئاً عادياً في البلاد الجنوبية، حيث عولجت الإمكانيات المحدودة للمضيف وبذكاء في مواجهة الشهية غير المحدودة للضيوف، بالأسلوب البسيط الذي يتلخص في تقديم طعام صاد للشهية يهدف منه ألاَّ يشحذ الشهية عند الضيف للطعام، بل يقتلها. كان الاهتمام المطلق الذي قدمه الرجل المسن للأطفال جانباً ممتازاً للعملية كلها، وكان تقديم حصص من الطعام إلى الخدم بواسطة أسيادهم يدعم كثيراً هذا الأسلوب ويمدحه. لا يشتكي الضيوف بالطبع من شيء غير الخدعة الأولى، إلا أن المرء سرعان ما تعلم بأن يتغلب على هذا الأمر بتعلمه المحافظة على شهيته إلى حين قدوم الجزء الرئيس من الوليمة.

يفضل سلطان أن يعيش معسكراً في الصحراء، غير أن له سكناً ثابتاً في قصر في مزرعة نخيل صغيرة تسمى الحريزي وهي ليست ببعيدة عن أطلال هفوف. لم تكن المسافة بعيدة من معسكره إلي طرف رجلة، فقط حوالي ميل واحد أو أكثر قليلاً، حيث يوجد قصر من سبعة طوابق، يرفرف فوقه علم السعوديين، يزيّن به يوم الجمعة، ويحتل نقطة الشرطة المحلية. كان القصر متسخاً من الداخل إلى درجة بعيدة وكانت السلالم التي تقود من طابق إلى آخر منحدرة بشدة وسيئة الصنع، غير أن المنظر الذي يطل عليه المرء من فوق السطح كان جائزة ممتازة لقاء

الصعود المرهق. كانت أشجار نخيل رجلة طويلة بشكل واضح ورشيقة، غير أن الغريب في أمرها، أنها كلها كانت عارية من الثمار لعلها كانت أشجار مذكرة. تكوّن مزارع النخيل في رجلة واجهة نهرية تمتد إلى مسافة نصف الميل وعمقاً يصل إلى ٢٠٠ أو ٣٠٠ ياردة، غير أنه يبدو أنها مهملة، وعلمت بأن مالكيها بدو غائبون في معظم الأوقات، يعودون إلى الموقع فقط في موسم الحصاد. لا تحتاج أشجار نخيل نجران بالمناسبة، إلى ري أو ري صناعي، ذلك لأن المياه كانت تحت التربة وبوفرة. غير أنه يحتاج إلى الآبار فقط لري محاصيل الحبوب.

عدنا مباشرة إلى المعسكر بعد أن أضعنا الوقت سدى في أرض رجلة، يقودنا حمد بن شقات الذي أفاض عليّ حمايته. كانت معلوماته الجغرافية واسعة وشمولية ومفيدة، غير أن له تلك الأعين الواسعة شبه الثابتة الملائمة للأغبياء وكثيراً ما تصرف كواحد منهم إذ أنه يجيب على أسئلة دون أن يفهم المراد منها. يوجد بين مزرعة ابن رخيم الصغيرة عند الطرف الغربي لرجلة والقبيبات -الاسم الشائع لضريح ثامر والمقبرة- أرض براري واسعة ينمو فيها عشب الحلفا تسمى الحسين، تكون أحياناً مستنقعاً خاصة بعد سيل وادي أسقام وتكوّن دلتاه. توجد غابة مهيبة من أشجار الطلح على جانبي بطن السيل، يعسكر في وسطها ابن منيف، غير أن البراري نفسها قد انسدت بمساحات من هضاب صغيرة ممتلئة بنبات حلفا منخفض يقول التحدار المحلي إنها بقايا لقرى عديدة هجرتها مجموعة من أبناء آل هندي يسمون المصاعبين الذين هاجروا من نجران إلى وادي بيحان منذ زمن بعيد واستوطنوا الموقع الآخر وبأعداد كبيرة حتى اليوم.

حضر جابر بن نصيب على ظهر حصانه صباح اليوم التالي ليأخذني في رحلة استكشافية نهارية إلى وادي الفرع والجلاميد والتلال التي تعترضه. أخبرته

أثناء اليوم كيف كان سلطان وأسرته مفيدين لي بإعطائي معلومات مفيدة. قفز إلى الطعم كسمك السالمون المرقط وقدم لي الحقائق المقابلة لما يخص شجرة نسب أسرته. كان جابر نفسه أكبر أربعة أبناء لوالده حسين وهم بالاسم جابر، ويحيى، وحمد، وعلي. وله ابنان هما: حسين وسمعان. كان لشقيقه يحيى ابن واحد اسمه وعيل، أما الشقيقان الآخران فلم يكن لهما أبناء. كان لعمّه الوحيد واسمه علي، ابنا واحداً يسمى حسين، ولهذا ابنان هما: علي وجابر. كان هكذا ترتيب آخر ثلاثة أجيال لأسرة تتلاشى بعد تاريخ طويل يعادل ذلك لأسرة المنافس جشم. لم يكن جابر سلس البيان في أمر شجرة نسبه مقارناً الرجل المسن سالم، إذ أنه كان يتلعثم ويخطئ مراراً ويصحح نفسه غير أنه بعد أيام لاحقه، قدم لي شجرة نسب مؤكدة ومكتوبة وهي كما يلي: جابر بن حسين بن جابر بن منيع بن سمعان، بن حمد بن جابر بن علي بن قطيان بن نصيب، بن غنيم بن مهدي بن علي بن حسر بن مواجد بن مذكر بن يام بن حمدان بن زيد وتضم تسعة عشرة جيلاً بما في ذلك جيله.

لا بد أن يذكر هنا أن اسم يسبع قد سقط وموقعه بن يام وحمدان في قائمة شجرة نسب جابر وعليه لابد من إضافته هنا وذلك أن الرجل المسن سلطان كان متأكداً من تضمينه. يتضح من مقارنة القائمتين أن كلاً من جشم ومذكر كانا شقيقين وكان الأخير هو والد مواجد وسلف آل فاطمة كما سيرد لاحقاً. ربما كان علي بن حسن (وربما إحسان) الوارد ذكره في القائمة السابقة هو الجد الأعلى لخطي رزق وحارث وأيضاً مهري، ربما كان هؤلاء هم أبناؤه الثلاثة. يبدو أن مذكرًا كان له، إلى جانب مواجد وفاطمة ابنان آخران هما سلوم ووادعة وكلاهما ممثل بقسم قبلي اليوم.

لقد تمكنت من إتمام الجيل النسبي لليام في وقت متأخر وقد حصلت على المعلومات بعد جهد جهيد أيضاً من جابر أبو ساق، والذي أرى أن أقدم رؤيته هنا للفائدة، هو جابر، الذي يكنى بأبي ساق، وهذا لقب خاص به، بسبب مرض أصابه في ساقه وقد عانى منه كثيراً منذ طفولته، وشقيقاه علي وأحمد، وثلاثتهم أبناء حسين بن منيع بن جابر بن منيع بن منصور بن واصل بن مذكر بن يام بن يسبع، بن حمدان بن زيد -كما في قائمة سلطان- وهم يكّونون ثمانية عشر جيلاً. كان لمذكر، كما يقول جابر أبو ساق، زوجتان، إحداهما هي والدة مواجد، ولم يذكر اسمها، وهي سلف ابن نصيب، والثانية فاطمة التي ولدت له ابنين، هما هشام وواصل. كان الأخير منهما، كما يبدو في شجرة النسب، هو الجد الأعلى للفرع الذي ينتهي في جابر وأشقائه، والذين يسمون عادة آل فاطمة، من ناحية جدتهم العليا.

لم أتمكن من أن أتحقق إن كانت ذرية هشام -كما يعتقد- من فرع آل فاطمة من ناحية جدتهم العليا أم لا، لقد كان له ابنان هما عجيم الذي أجهل تطوره التالي، ووعيل الذي يعرف بأنه سلف للأقسام المعاصرة التالية: آل العرجاء وتحت قسم نهشل ويشتق منه، آل رشيد، وآل فهاد، والمطلق، والفتيح، والحسن، وابن عيسى، والزايد، والوعلة وآل حمد بن فضل والعجمان -لعلها قبيلة بالأحساء بالاسم نفسه-، يتبع آل فاطمة أيضاً النصيين في وادي مرخة في الجنوب. كما كان لجابر أبي ساق في ذلك الوقت خمسة أبناء أحياء - هم شرفى، وعلي، وفيصل، ومنيع، ويحيى. وكان لشقيقه علي ابنان هما: سالم ومنيع، بينما كان للشقيق الآخر حمد ابنان أيضاً هما: حسين وحسن.

هكذا كانت أجيال قبيلة يام كما رواها لي ثلاثة من شيوخ القبائل الكبار. أعود الآن لحملتي التي رافقني فيها جابر بن نصيب والتي أنجزناها في اليوم الرابع من يوليو، وقد شرعنا فيها قبل الساعة السابعة صباحاً على ظهور الجحوش، علماً بأن جابر نفسه فضل أن يمتطي حصانه، وذلك للمرحلة الأولى من الرحلة. كان اتجاه سيرنا العام هو تجاه شرق الجنوب الشرقي وكان هدفنا الأول هو مضيق منخفض، ارتفاعه ١٠٠ قدم يقع فوق مستوى السهل، يقع بين قمتي جبل السودة اللتين ورد ذكرهما. هبطنا من هنا على الجانب الآخر إلى خليج وادي اسقام الذي يقع على هضبة حجر صخري بالقرب من من رابية تسمى ملطة وينساب عبر الخليج ماراً بتل ذروة -يقال إنه يحتوي على نقوش لم أفحصها-، ويتصل من هناك بعدد من التلال الثانوية أو السيول من عند الجلاميد المجاورة، وعلى رأسها شعيب صرّة وشعيب تكتمه، والأخير يهبط من عند تل على شكل القلعة بالاسم نفسه على قمة الجلمود.

ترجلنا عن ظهور دوابنا عندما وصلنا إلى بطن سيل صيرة الذي تنتشر فوق سطحه الجلاميد، وسرنا على الأقدام لمواصلة حملة الاستكشاف، وقد أعيدت حيواناتنا إلى المعسكر. ينغرز رأس صيرة، وهو مثلث ضيق، داخل قاعدة الجلمود، وكان ارتفاعه حوالي ٣٠٠ قدماً فوق مستوى السهل عند الأخدود، ويواجهنا الآن ممر شديد الإنحدار، صعب، ضيق، ومتعرج وعلينا أن نتسلقه إلى جانب الجلمود، وهو ممر صعب على الحمير، وبرغم ذلك فالحيوانات تطرقه من وإلى وادي الفرع. قابلنا في الممر رجلاً وزوجته ومعهما جمال لهما، وهما هابطين الممر حينما كنا نحن نجاهد في الصعود. تسمى قمة الممر عقبة (ذات على) من عند تل كهفي مميز ليس بالبعيد (ويسمى أيضاً أم خرق)، وترتفع إلى ١٠٠٠

قدم فوق مستوى السهل وكان الصعود من عند سفح صرّة حوالي ٧٠٠ قدم. نقف الآن على هضبة حجر صخري (ذات على) عند قدم أم خرق والتي بدأنا تسلقها، وترتفع قمتها على علو ٦٠٠ قدم فوق سطح الهضبة و١٦٠٠ قدم فوق مستوى السهل، وكان المنظر من عندها واسعاً وعميقاً في كل الجهات.

استقررنا هنا، جابر ومسفر، وشخصي، لأجل القيام بمسح طويل للمناطق المحيطة. كان أول منظر أشاهده لمملكة اليمن والحدود، وقد تم توضيح هذا الجانب من الحدود بدقة، بواسطة جابر وفريقه، بوضعهم ركام من الحجارة، كما شارك في ذلك مسفر، بالتعاون مع ممثلي اليمن. بدأت أرسم الخرائط، من هنا، للحدود والتي قد شغلتني مدة ستة أشهر وقد انتهت إلى البعيد على ساحل البحر الأحمر.

كانت كل الهضبة وما على جانبيها من حجر رملي ممزق بواسطة الرياح والأمطار تقود إلى سلسلة من أودية ضحلة وسلاسل مسننة ذات قمم قليلة بارزة. ترتكز الحجارة الرملية فوق الأساس الجرانيتي الذي ينكشف في حالة الجلاميد في وادي نجران وكذلك في الصخور البارزة والتلال على حافة الصحراء من ناحية الشرق. يكشف السطح في المساحات بين الأودية والسلاسل عن حقول واسعة من حجر رملي ناعم مكسر هنا وهناك إلى أخاديد صعبة تهبط بين الجلاميد المهلهلة إلى الأودية الرئيسة. تشتق أم خرق هذا الاسم من شق يجري في قمة الصخرة من جانب إلى آخر، من عند كهف ذي حجم معتبر يبدو وكأنه من المستحيل الوصول إليه. انحجب من خلفنا معظم المنظر لواحة نجران بتعارض شريط من قمم حجرية رملية فنطازية الشكل تجري على امتداد القمة فوق جلمودها الجنوبي،

غير أننا نستطيع رؤية أشجار النخيل من عند منجَّم وغرباً إلى حضنة بالقرب من قصر أبالسعود، والذي لم يكن مرئياً. يمكننا أيضاً من رؤية مزرعة النخيل الصغيرة عند بئر ماجد وكذلك البحيرة كثيفة القصب التي تسمى مجبر سرى القريبة من معسكرنا في أخدود، والذي كان غير واضح لنا. يمكننا أيضاً رؤية مخرج الوادي في فجوة عن دريب ورؤية منارة على الجانب البعيد. كان ترتيب القمم الحجرية الرملية على الجلمود الجنوبي من ناحية الشرق إلى الغرب كما يلي: خريم، وحوية، وأبله، ومراحة، وملطة، إلخ، عند سفح خليج اسقام ويقع جبل السودة على الجانب البعيد للمنخفض، ثم تأتي بعد ذلك السمة البارزة لعرير وقروة وهما تطلان على ممر نهيقة الذي يهبط إلى دلتا نهوقة، وتأتي إلى ما يلي هذا القمة العالية لقرن بالحارث وهي تقع في التلال الواقعة إلى الشمال من نجران، وتعتبر من أميز العلامات الأرضية للمقاطعة. نهضت قمم فرد ناحية غرب الجنوب الغربي على الحدود، حاجبة بذلك القرية اليمنية نقعة التي كانت موقع بعض القتال في حرب ١٩٣٤م.

كان الجزء الأكثر إثارة للاهتمام والذي شاهدناه من موقع المشاهدة المرتفع هذا حيث يقع على التل الكهفي الذي يقع إلى الجنوب هو عبارة عن وتر عريض عميق، كانت أطرافه هي صخور تنصب بعيداً ناحية الشرق وسلسلة عشه المنخفضة إلى الجنوب الغربي التي تحجب عن أنظارنا سهل ومدينة صعدة. يوجد أسفلنا وإلى الأمام مباشرة وادي الفرع، وهو حوض ضحل في الحجر الرملي يمتد من الأطراف الممزقة للهضبة ماراً بموقعنا تجاه القمة لدلتا عظيمة لرمال متدحرجة مظللة بالصخور الجرانيتية الداكنة عند أطرافها وفي الوسط. يتواصل وادي الفرع، من عند الجانب الشمالي لهذه الدلتا، مع منخفض سلع الذي يجري داخل

الصحـراء بين تلال تنصب وأبرقين. يوضح شـريط من غطاء نباتي مـتقطع، إلى الجنوب البعـيد، الموقع الذي يتحـد فيه عدد من الأودية الصـغيرة لتكوِّن شـعيب العلب الذي ينطلق إلى مقـبرته في الرمال على الجـانب القريب لسلسلة جرانيـتية منخفضة تنتهي عند الأرض الرأسيـة لخشم العلب. كان المنظر حزيناً وعارياً، وقد ازدادت معرفتي به في وقت لاحق، والشيء الـوحيد الذي برز من داخله بوضوح تام كان التل الرومانسي المسمى ميحر الذي يقع إلى البعيد، ناحية الجنوب الشرقي على حافة الهضبة وهو مشهور بكنزه الخرافي القديم غير الموجود.

صار وادي الفرع عـارياً تماماً من النبات بعد مـسافة أميال قليلـة من عند قمة دلتاه الرمليـة، غير أن مجراه ظل يجـري جنوباً ماراً بأم خرق على امتـداد مسيل ضحل يسمى أثيثة ومن ثم عبر الحدود ليدخل الوادي أسفل جمع من قرى صغيرة في الموقع الذي ينبعج فـيه من ممره في الهضبـة. في اعتقادي أن هذه القـرى تبعد حوالي خمسة أميال وفي خط مستقيم، أو حوالي ثلاثة أميال داخل الحدود. توجد من بين هذه القرى مع اتجاه الوادي، إلى أسفل، قرية عمير -أيضاً تسمى بئر زيد-، وفوقها قليلاً بئر الفاس، ثم شقيم وهي أكـبر كثيراً وذات مزارع عنب واسعة ممتدة عبر مضيق الخنقه الضيق -وبها بعض المنازل-، وفـيما يلي هذه وإلى مساحة كبيرة توجـد مزارع نخـيل ومزارع عنب هي أيضـاً غيـر مرئيـة تسمى حلف فـي الجزء الأوسع من الممر. هكذا كانت واحة الفرع والتـي من إنتاج مزارعها وصلنا العنب الممتاز الذي ورد ذكـره. يدل كل ما رأيته فيها، إنهـا مجتمع مزّقه الفقـر، ليعيش أهله في خيـام ويشرفون على بساتينـهم وهذا كل ما يمكن أن يقال عنها، غـير أن جابر فاضل بين شقيم هذه وهفوف وقارنهما مع منطقة القابل المزدهرة في نجران.

يعلِّم موقع سنام الحجر الرملي المنظاري المسمى بقَّع مخرج وادي الفرع من عند ممره والذي تتصل عند أسفله وعلى فترات المسايل التالية: ثربة -وبها ثقوب حسو المائية-، وثوع وأثيثة، وكل هذه تهبط من المرتفعات الحجرية الرملية القائمة حول كل من أبلة وأم خرق. يدخل إلى الفرع، من مكان ما، أسفل أم خرق شعيب عبيرة، من جانب التلال تجاه نجران، وهو الذي تقام على امتداده الحدود المعلمة. كانت صخرة تنصاب هي أقصى بقعة ناحية الشرق وتعتبر حدوداً ثابتة بالاتفاق المتبادل، غير أنها ليست معلمة بأي رمز ملموس أو مشاهد، يتبع الخط من عندها مجرى سلع متجهاً إلى قمة سوداء تسمى ثار تقع على رأس الدلتا والتي وضع عليها كوم من حجارة. تبعد ثار مسافة خمسة أميال من أم خرق ويتبع خط الحدود هذه التلال إلى شمال وادي الفرع، ومن هناك إلى هضبة عنيبان التي تبعد ميلاً ونصف الميل إلى جنوب غرب أم خرق والمعلم بحجارة عند منحنى شعيب عبيرة. بعد ذلك يلتقي الخط مع طريق نجران - الفرع مع وجود علامة على قمة تل ضلع الشري، ومن هناك يجري إلى تل كوكب حوالي ميلين ونصف الميل من الجنوب الغربي من أم خرق.

يمكن القول بأن هذا الجانب من الحدود لن يقود إطلاقاً إلى نزاع عالمي إذ أنه لا يمكن لأحد أن يطمع في هذه الصخور العارية على جانبيها، والتي تكوّن أرضاً لا يملكها بشر، والتي تقع بين نجران والفرع. يمتد مجاز ضيق باهت لصحراء من الصخور الرملية العارية، فما يلي الفرع، تجاه الجنوب، وتتخلله سلاسل متقاطعة متجهة إلى أودية وعلة، في ضيدة وأملج، والتي قيل لي أن بها مناطق سكنية فقيرة حيث يحتال الإنسان في معيشته بعمل دائب ومضن فوق تربة عارية.

هبطنا الجانب الغربي لأم خرق بعد أن شاهدنا كل هذا، وقد لاحظت على سفح أم خرق مجموعة جيدة من رسوم بدائية مخربشة على جدران الصخر الرملي. كان مجموعها عشرة رسومات، بعضها قد أتلفته عوامل الطقس، غير أن بعضها الآخر كان يمثل صورة حية لأناس وهم منشغلون في تسلية لعبة القتال التي تستمتع بقداسة القدم في الجزيرة العربية. كانت إحداها المبارزة بين رجلين متعادلين في القوة إذ أن لكل منهما سيف ودرقة (ترس) وأظهرت لوحة أخرى رجلاً، مسلحاً بالعدة نفسها، وهو مهاجم عدداً عند لحظة إطلاق سهم نحوه من قوس، بينما أوضحت لوحة ثالثة نبّالاً يقف في مواجهة رجل آخر يمتطي فرساً ملوحاً برمح. كانت بقية الرسوم من نوعية متدنية، ويصعب التعرف على بعض الحيوانات، غير أن رسماً واحداً منها كان لمهاة كما توجد صور بعض الجمال.

رأيت جلموداً ضخماً وعليه نقوش ثمودية تتكون من ٢٢ حرفاً، وذلك عند ممر شعيب ثوع ذي الممر المنحدر وذي الرأس عديد التفرعات والذي يقع إلى ناحية الغرب من أم خرق. عبرنا بعدها ممراً ضيقاً طويلاً يقع بين قمة أبله على يميننا وسلسلة كوكب بحدودها المعلمة بركام من الحجارة على يسارنا. لقد استنزفنا كل ما كان لدينا من مياه عند هذا الموقع. وأصابنا الظمأ بسبب حرارة منتصف النهار، غير أن مسفر كان على علم ببركة صخرية تقع في مسيل كوكب، فذهب إليها وعاد إلينا بمياه منعشة. عثرنا هنا وللمرة الثانية على رسوم لجمال، ورمَّاحين ممتطين لخيولهم... إلخ. ثم تحركنا إلى ركام الحجارة الحدودي الخامس على هضبة صخر رملي منخفضة تسمى سبغة آل شنينة. كانت الهضبة المكسرة على يميننا ممزقة بتأثير مجاري أسداد الضيقة، عابرة ملطة للاتحاد مع اسقام، ورافدة شعيب رخم.

وصلنا إلى رأس شعيب نهيقة وتل قروة بعد أن تركنا عمود شنينة لزيارة لاحقه أخرى وذلك لأن الوقت غدا متأخراً، ترتفع قاعدة قروة إلى ١٤٠٠ قدم فوق مستوى السهل. كان الوقت متأخراً للأسف، ولم نتمكن من عمل شيء غير التحقق فقط من الحقيقة التي وضحت لنا، وهي أن الجلاميد وأسطح الصخور، في هذا الموقع، كانت كلها وكأنها مكتبة لنقوش حقيقية. لقد قمت بنسخ نصف الدستة من هذه النقوش وبعجلة في دفتر مذكراتي على أن أترك البقية إلى زيارة أخرى. كان الوقت عند المغرب تقريباً، حينما بدأنا النزول عبر الممر الشديد الانحدار، والمحفوف بالخطر والذي يصل ارتفاعه إلى ١٠٠٠ قدم أو أكثر، والذي بدا لي من عند القمة وكأنه مجرد صخرة، كان كل من جابر ومسفر من متسلقي الجبال الممتازين، وبصورة أو أخرى فقد كانا دائماً موفقين في إيجاد ممر عملي وهو يتلوّى بنا خلال الهبوط إلى أسفل.

وصلنا أخيراً إلى مسطبة المنحدر عند القاعدة، ومنها إلى السهل نفسه، والذي لا يزال علينا أن نسير فوقه إلى مسافة طويلة قبل أن نصل إلى المعسكر. لم نصل إلى المعسكر إلاَّ بعد الساعة الثامنة مساءً، وكنا لم نتناول طعاماً طيلة النهار، عدا كوب شاي الصباح مع قطعة خبز جافة. لقد كانت الحملة مرهقة، ولكنها مثيرة للاهتمام، وكان الهبوط إلى أسفل في صخور الحوية مضنيا إلى حد بعيد. لقد استمتعت بشرب كوب الشاي وتناول العنب حينما دخلنا المعسكر، دون أن أتطرق لذكر لحم الضأن والأرز التي أعدَّ منها طعام العشاء سريعاً بعد ذلك. قضى جابر وصالح -دون وجود مسفر-، الليلة معنا لمشاهدة كسوف القمر، والذي كان مثبطاً للآمال نسبة لوجود السحب، غير أنه قد تجمع حشد كبير معي حول جهاز اللاسلكي لاستماع الأخبار والاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم الممتازة من إذاعة

القاهرة، والتي نالت الإعـجاب كثيراً. احـتوت النقوش القليلة التي نسخـتها من قروة على ١٢٢ حرفاً وقد كان إلى جوارها رسوم للوعل وللمها ولكلب سلوقي، ولجمال، ولرمَّاحين وغير ذلك.

انتهزت أي فـترة فراغ لديَّ خلال هذه الأيام الأربعـة لأفحص وأقيس وأرسم الخرائط وأكتب مذكراتي حول أطلال أخدود نفسها، وقد خصصت كل اليوم الذي تلي حملتي إلى أم خرق لأداء هـذا العمل. اعترض أعمـالي هذه زيارة قام بها لنا كل من سلطان بن منيف وسالم، وقد حـضرا عند موعد الغداء كمـا وصل داعياً نفسـه حمد بن شـقات، دون أي تشجـيع لهذه الدعوة من جـانبي، كان من بين الفريق أيضاً صالح، رئيس الشرطة، غير أنه وجه إلينا الدعوة لتناول العشاء معه، ومع رجاله تلك الليلة. لقـد استمتـعت بالإغفاءة الطويلة بعد الظهـر والتي قمت بعدها بزيارة بحيرة مجبر سري المستنقعية بحثاً عن الطيور.

يبدو أن هذه البحيرة وأخرى صغيرة تقع إلى الشمال منها بجوار مزارع نخيل ابن زليق كانتـا بقايا لنظام ري قـديم، ربما يعود تاريخه إلى أوج عظمـة الأخدود حيـث إنني وجدت عـلامات لخندق مـائي حول المدينة ولعلـه كان امتـداداً مائـياً تجمـيلياً للمدينة. كـما لا بد وأن يكون القنال الرئيس قد انـطلق من عند الجانب الأيمن لمجرى وادي نجران ناحيـة قابل، وقام بمهمة ري مساحات كـبيرة من السهل هو وروافـده، إلى جانب إمـداد الأخدود بالميـاه. لا يزال هنالك فرع آخـر بعض أجزائه واضحة، وبلا شك فإنه قد عبر من خـلال مزارع نخيل قابل، ولا يستبعد أن هذا هو الذي أدى في نهاية الأمـر لتكوّن بحيرة مجـبر سعد التي تتـخذ شكلاً بيضاوياً وتبـلغ مساحتهـا حوالي ٥٠٠ إلى ٣٠٠ ياردة مربعة. تكشف امـتداداتها الغربية الممتـلئة بالقصب والأثل عن علامات بوجود مجـرى صرف طويل، ينحدر

إليها من عند جهة القابل. يغطي نبات الحلفا الأرض المرتفعة إلى شمال وشرق البحيرة، ويربطها مع براري حسين، بينما على الجانب الجنوبي فإن السهل المنقط بأشجار الطلع ينحدر إلى شريط عريض لنبات العاقول (شوك الجمل) الذي يحيط بالقصب من هذه الناحية. كان نمو القصب والأثل كثيفاً على حافات البحيرة والمجرى الذي يقود إليها، وكانت نامية ومرتفعة مما يكفي لإخفاء إنسان يقف في وسطها. تؤمن هذه النباتات الطويلة غطاءً ممتازاً طيور الماء والضفادع الكثيرة كما كان كذلك الذباب الصغير والبعوض، والتي كانت طوير الخطاف والعصافير، وحتى الخفاش تتغذى عليها حتى أفزعتها كلها جميعاً بصوت طلق بندقيتي. كانت طريدتي أوزة براهيمية، لابدة بين القصب، والتي لم أتمكن من إصابتها هذه المرة، غير أن فرج كان قد أحضر لي واحدة قبل يوم أو يومين قبل أن أوفق في الحصول على واحدة بنفسي، فيما بعد، في بحيرة ابن زليق. شاهدت في اليوم التالي ثعلبين بجوار بركة غليل، ليست بالبعيدة، بجوار مزارع نخيل الغريري، ربما كانا يطاردان خلسة أحد طيور الماء.

سرت عبر السهل صباح اليوم التالي لزيارة سلسلة جبل الحمرة. وتفحصت في طريقي المدفنة الكبيرة -لعلها من العصور الوسطى- والتي تسمى القبر الأبيض. رأيت ناحية طرفها الشرقي قبة كبيرة ذات حجم غير طبيعي، مبنية من بلوكات حجارة خشنة يتراوح طول الحجر من ١٢ إلى ١٨ بوصة. لم يكن هنالك شيء غير طبيعي حول القبر غير حجمه، كان اتجاهه من شمال شرق إلى جنوب غرب، بمعنى آخر فهو مواجه للقبلة. ورأيت بجواره شاهداً وعليه نقوش عربية عادية. أثار الحجم الكبير للمقبرة وموقعها البعيد من مواطن السكن في الوقت الحالي، أسئلة محيرة لا يوجد لها حل الآن. كما وجدت نقوشاً أكثر عند قاعدة

الجبل حمرة، الذي هو من جرانيت بلون أحمر وكـما وجدت ألواحاً لكتابة عليها رسوم بدائية جداً لأشكال بشرية وحـيوانات، والتي تدل على تاريخ إسلامي مبكر لهذه المقبرة. كانت صخور هذه السلسلة ممتلئة بالكهوف والفجوات، وقد عسكر حمد ابن شقات في السهل قريباً من هذه الكهوف ليستقبل حمايتها أثناء حرارة النهار.

كدت أن أصل إلى نـهاية استكشـافاتي للأطلال، وحـان الوقت أن أفكر في العودة سريعاً إلى المركز الرئيس، لأعد نفسي لإنطلاقة المرحلة التالية من تجولاتي. كنت متطلعاً لزيـارة قروة مرة أخرى واستكشـافها بدقة أكثر لـلمزيد من النقوش، وقد خصصت آخـر يوم لي في هذا المعسكر لتنفيذ ذلك. أرسلت مـحمد، سائق عربتي، كـسبـاً للوقت، لإحضـار سيارة النقل الـفورد، والتي ركبناهـا أنا وجابر وصالح وأحد رجال الشرطة، متوجهين عبـر السهل عند الساعة الثامنة صباحاً إلى حيث توجد صخرة كبيرة منعزلة في موقع يلامس فيه أخدود نهيقة مجرى نجران، وقد أطلقت على هذه الصخرة، التي لم يكن لها اسم «صخرة الأمير» لأنها كانت المصيف المفـضل للنشمي، الذي كان يـأتي إلى هنا مع تابعيه لأداء صـلاة المغرب ليستمتع بالمساء البارد مع تناول القهوة وفاكهة العنب.

يتسع نهيقة هنا في دلتا تتحد مع تلك لنهوقة، ويفصلهما عن بعضهما صخور متكونة على جـانبه الأيسر، وصـخور تكوِّن الجانب الأيمن للوادي الأكـبر، وتضم الصخرتـان هضبة معتـبرة عند قمتـيهما ثم يهـبطان عند موقع اتصالهمـا إلى نتوء صخري طويل وحاد تقـود إلى الدلتا. استطعنا قيادة السيـارة بعضاً من الطريق إلى أعلى نهيقـة، حينما كان المجرى ينحدر بلطف ولم يكن بالصـعب، غير أننا تركنا السيارة في نهـاية الأمر في ظل بعض الأشجار والشجيـرات إلى حين عودتنا. كان ارتفاع هذا الموقع حوالي ٢٠٠ قدم فوق مستوى السهل، ومن هناك وإلى أعلى كنا

نزحف على امتداد السفح الشديد الانحدار على جانب الوادي الأيسر الذي انتثرت فوقه صخور وجلاميد تساقطت من القمة. يضيق الممر بسرعة كلما ارتفع إلى أعلى تجاه مضيق قروة الذي كنا نتجه نحوه. كانت الساعة العاشرة والنصف عندما وصلنا قاعدة القمة الحجرية الرملية التي تغطي قاعدة جرانيتية للجلمود. لقد تسلقنا إلى حوالي ١١٠٠ قدم منذ أن غادرنا السيارة، وكنا على ارتفاع ٥٩٠٠ قدم فوق مستوى البحر. تستقر الصخور الرملية أفقياً بالفعل على وسادة سمكها ثلاثة أقدام من مختلط أبيض شبيه بالأسمنت، تفصلها من الجزء الأعلى الغير مستو لصخور بركانية تحتية. أصبح الممشى الذي كنا قد تبعناه قبل يوم أو يومين للوصول إلى النقوش على ارتفاع ٤٠ قدماً فوق ملامسة الحجر الرملي، وهذا يمكن اعتباره بأنه الكثافة في السُّمك في المتوسط لقلنسوة الحجر الرملي، علماً بأن القمم البارزة مثل قروة، وعرير، إلخ ارتفعت أكثر من ذلك بحوالي ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم. كانت هنالك مجموعة حجارة عند طرف الهضبة تقع بين سفحي ممري نهيقة وحوية ثم يتحدان لتكوين المجرى العريض الذي تركنا السيارة فيه.

بدأت العمل فوراً على الصخرة الكبيرة التي لاحظتها في المرة السابقة، والتي كانت جوانبها الملساء، المحمية من تأثيرات الطقس تحمل ثروة من النقوش. كان هنالك نقش آخر قريباً من هنا يرافقه رسماً جميلاً لبقرة، غير أن نسخه كان صعباً بسبب أن اللوحة التي كان عليها تتدلَّى من الصخرة الشديدة الانحدار إلاَّ أنني قد ثابرت عليها وعلى غيرها. كنت أعجب في بعض الأحيان كيف استطاع الفنان الوصول إلى مواقع مستحيلة كهذه حتى تمكنت من أن أنقل إلى مفكرتي نسخة من كل ما يستحق النسخ مما هو على الهضبة. تسلقنا بعد ذلك إلى القمم المجاورة: خريم وعرير، اللتين تكونان أجزاء لسلسلة أخرى عالية تطل على وادي نجران وقد

نحتتها الرياح إلى كهوف وفجوات مقوسة والتي قد تكررت زيارات الأقدمين لها أكثر مما فعل سلفهم. لم يكن هنالك مكان لقدم خال من الرسم أو الكتابة، وقد كان الوقت عند الغروب تقريباً عندما انتهيت من نسخها كلها. كانت قمة عرير على ارتفاع ٦٣٠٠ قدم فوق سطح البحر، أو قل ١٦٠٠ قدم أعلى من الجزء الوسط لوادي نجران أي حول قصر أبي السعود.

وصلنا إلى مستوى تماس الحجر الرملي قليلاً قبل غروب الشمس واسترحنا قليلاً لتناول بعض الشاي قبل مواصلة هبوط الوادي عند الساعة السابعة والنصف، ونحمد الله على وجود السيارة التي خففت كثيراً من الأعباء. وترصعت السماء في هذه الليلة الأخيرة لنا في الأخدود بالنجوم ربما على سبيل الاتفاق معنا. كانت ليلة جميلة بحق وهي الأولى منذ وصولنا إلى الأخدود. غير أن البعوض كان سيئاً إلى حد بعيد وقد عمدت إلى النوم المبكر استعداداً لما نحتاج إليه من نشاط، إلاَّ أنني وجدت أنه من الصعب عليَّ أن أنام. كان الجميع على عجلة من أمرهم لمغادرة الأخدود، غير أن عملية ترتيبي لعفشي قد اعترضتها زيارات الناس، خاصة الشحاذين بحثاً عن الصدقات والطعام، وبعض البائعين لأشياء تافهة لا قيمة لها. كان أول من وقف أمام خيمتي فتاة تقود شحاذاً أعمى، وقد انتهزت فرصة تصويرها مقابل عملة معدنية قليلة كانت من نصيبهما.

جاء بعدها رجل مسن ولكنه صحيح البدن رأى أنه من الأفضل له أن يجرب حظه معي والذي لم يكن أكبر مما توقع. كان زائري الثالث ليس شحاذاً ولكنه بائع، رجل زنجي محرر وقد أحضر معه قطعة من مرمر من عند مبنى في الحقل الذي يعمل فيه. لم يكن في هذا الوقت رقيق بهذا المعنى في نجران، غير أنه يوجد عدد

معتبر من الرقيق السابق الذين أعتقوا، ويعملون في المزارع. يرى البدو الذين يملكون معظم المزارع أنه مما يحط من مقامهم أن يقوموا بحراثة الأرض، بينما يكون معظم القائمين بالإشراف على المتاجر في نجران هم مهاجرون مؤقتون يتبعون الزيود، من اليمن، معظمهم من صعدة.

حان الوقت أخيراً أن نتحرك، وذهبت أنا وفرج سيراً على الأقدام عبر طريق مختصر يخترق بعض المزارع التي كنت أرغب في رؤيتها، بينما غادر بقية الفريق، بالسيارات، وبصحبة العفش سالكين الطريق الذي وصلوا به من قبل إلى هنا. ضربنا السير فوق أرض البلاد مارين ببحيرة سري إلى مزارع نخيل الغريري بجوار بركة مجبر بن زليق، والتي فيها فاجأت بطلقاتي سبعة أوزات براهمانية وأصبت منها واحدة. كما يوجد على الجانب البعيد من البحيرة مزرعة نخيل صغيرة تسمى بئر عتيق، غير أننا رأينا أن نختبر كرم أهل الغريرى، حين جلسنا مع حشد من القرويين ضعاف العقول لا يفهمون شيئاً. ولمحت من بينهم امرأة عجوزاً تجلس مباشرة من وراء أحد صبيان القرية، وتختلس النظر بدهشة من فوق كتفه، ناحيتي.

يبدو الناس هنا، كما في كل مكان آخر، فقراء ترتسم على وجوههم الكآبة كان كل ما استطاعوا أن يقدموه لنا من طعام هو التمر وفي مرحلة التلون غير أنهم تمكنوا من إنتاج نوع رديء من البن ونوع أحسن إلى حد ما، من قشر البن المسحوق. توقفنا لحظة عند نعمان، بعد مواصلتنا السير، وهو المقر المدمر لموقع قديم به بعض قطع البناء ملقاة هنا وهناك وعليها نقوش حميرية قمت بنسخها قبل الانتقال إلى موقع بئر كعب الجذابة وتتبع هذه البئر أهل الكبيبة -فيما أظن-

وقد سبق أن ذكرها لي يوسف هالفي، حيث يُربط في الصورة ثوران وجمل لسحب حبال الدلو من وإلى المنحدر المعروف وذلك لري محاصيل حبوب الذرة التي كانت في هذا الحقل الصغير.

وصلنا إلى طرف بطن الوادي، بعد فترة وجيزة، بالقرب من مزرعة نخيل جديدات بين حمران، وعبرناها إلى الجانب الآخر لنخوض في رمل سميك. كان عرض المجرى هنا ٨٨٤ خطوة، أو ٧٤٠ ياردة، غير أن البطن كان جافاً تماماً على الرغم من السيول الأخيرة.

توقفنا قليلاً، على الجانب الآخر، عند قصر بئر المطر والتي تقع إلى ما ورائها مزارع النخيل الغزيرة لقصور دحضة -التابعة لآل صقر-، تمتد إلى الخلف إلى حافة الحزيمية الذي وجدنا في ظل جداره شخصين يرتاحان. كانت ثيابهم البسيطة متسخة إلى حد لا يوصف، وقد قرأت على قماش ذراع أحدهما العلامة التجارية للصانع (الملاءة الممتازة) تكلف هذه القطع المطبوعة من القماش أكثر مما تكلفه القطع غير المطبوعة وهو أمر غريب، وذلك للاعتقاد الشائع أنه لا مجال للغش حول نوعيتها! مررنا برجل وفتاة في إحدى الحدائق وهما ينسجان سجادة. كانت الفتاة ذات تقاطيع وسيمة بشكل ملحوظ ويبدوان كأنما هما من قبيلة هتيم الشبه غجرية، كما تعرف عنهم في الأجزاء الشمالية من الجزيرة العربية بأنهم ذوو مكانة متدنية في المعيار الاجتماعي. رأيت مساحة معتبرة من أشجار النخيل في الجزء الغربي من دحذة محترقة إلى حد بعيد، غير أنها ما زالت حية ومزدهرة. كانت هذه واحدة من المساحات التي أشعلت فيها القوات اليمنية النار أثناء الاحتلال كعقاب بسبب عدم الولاء المزعوم من جانب ملاكها بني شميخ. كما شاهدت شجرة عنب كبيرة متسلقة

شجرة تين ولكنها كانت جافة. وصلنا بعد ذلك إلى قصور بني سلمان وإلى مزارعهم، وسرنا فيما يليها عبر ساحة واسعة تحيط بالبناء الحكومي لقصر أبي السعود. كنا وكأنما قد عدنا إلى الوطن مرة أخرى.

سأخصص ما تبقى من هذا الفصل لسرد مؤقت لتاريخ نجران[١] وبخلاصة موجزه بقدر المستطاع لنتائج استكشافاتي لأطلال الأخدود، وهو عمل استغرق أسبوعاً مرهقاً. توضح خريطة الوادي شرحاً مرافقاً للتسجيل. ورد اسم نجران في التاريخ، بقدر ما استطعت من جهد للوصول لهذا، في بعض النقوش على سد مأرب العظيم، والتي قام بتسجيلها الرحالة ومصمم الخرائط المشهور (إدوارد قلاسر Edward Glaser) -وهو يهودي نمساوي- خلال رحلاته في اليمن خلال الثمانينيات من القرن الماضي. يرجع تاريخ النقوش إلى عصر ازدهار السبئيين وسيطرتهم على جنوب الجزيرة العربية. كانت فترة نشاط زراعي وحربي عظيم، نتج عنه ظهور دولة سبأ، كقوة رئيسة في تلك الجزيرة العربية. تطور الموقف، خلال أربعة قرون بدأت عام ١١٠٠ ق.م[٢]، وبكفاءة متزايدة، في مملكة معين، التي امتدت مستعمراتها شمالاً عبر طريق التوابل لتشمل العلا وتيماء. لقد اقترحت في مكان آخر، أن مملكة معين هذه كانت المهد الذي تربى فيه الفينيقيون إلى أن أقاموا الإمبراطورية العظيمة التي سيطرت على الخليج العربي وساحل

(١) لقد نشرت موضوعاً كاملاً وبتفاصيل أكثر عن تاريخ جنوب الجزيرة العربية في عصور ما قبل الإسلام، منذ كتابة هذا الفصل، في كتاب خلفية الإسلام (الاسكندرية. وايتهد مورس ١٩٤٧م) وإلى ذلك أحيل القارئ، ذلك لأنني تركت هذا الفصل على حالته الأصلية التي حرر بها قبل عام ١٩٤٤م. (المؤلف).

(٢) هناك اختلاف كبير بين مؤرخي الجزيرة العربية القدماء حول التاريخ الزمني لممالك جنوب الجزيرة العربية؛ لذلك لا يمكن الاعتماد على التواريخ التي دونها فيلبي للتطورات السياسية في جنوب الجزيرة. (المراجعون).

البحر الأبيض المتوسط. بناءً على هذا الافتراض فإن المعينيين كانوا فينيقيين. مهما كان الأمر، فإنه يبدو من المعلومات المتوافرة في النقوش أنه حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد كان أحد ملوك معين واسمه صديق آيل بسط نفوذه على منطقة حضرموت المنتجة للتوابل ثم تركها كمملكة قائمة بذاتها لابنه الأصغر شاهر علان، بينما حكم الابن الأكبر آيل يفع يشع دولة معين. كان ابن هذا الأخير ويسمى معدكرب، الذي خلف خاله شاهر علان، ملكاً على حضرموت وأسس لسلالة حاكمة قصيرة العمر.

لا نعرف إن كان لحضرموت ملوك منفصلون أو أنها أعيد دمجها في مملكة معين غير أن تغيرات مهمة كانت قد حدثت حوالي عام ٩٠٠ قبل الميلاد في التركيب السياسي للجزيرة العربية. عاشت مملكة قتبان[١]، والتي تغطي الزاوية الجنوبية الغربية للجزيرة العربية، دولة مستقلة منذ عهد أقدم ملوك معين، تحت تتابع لحكام دينين، يطلقون على أنفسهم اسم مكارب. لقد مر علينا ما لا يقل عن ١٢ اسماً مثل مكارب من دراسة النقوش، غير أنه يهمنا هنا شهريجيل يحرجب الذي أطلق على نفسه لقب مالك قتبان ومعين عام ٨٥٠ قبل الميلاد ربما للاحتفال بانتصاره على الإقليم الثاني خلال فترة حكم ملكها الذي كان اسمه وقح آيل. بدأنا في الوقت نفسه نسمع أن سبأ وعاصمتها مأرب، دولة مستقلة، تحت تعاقب المكاربين، بينما في الوقت نفسه تقريباً، يفيد ظهور حكم ملوك حضرموت بأن البلاد قد نجحت في إسقاط عبودية المعينيين المتهالكة. حافظت حضرموت، على

(١) قامت باستكشافها حملة آثارية أمريكية عام ١٩٤٩ و ١٩٥٠م وقد شرعت بالتنقيب في عدة مجموعات من الأطلال، لم تنشر التفاصيل الكاملة لهذه الحفريات بعد. (المؤلف).

كل حال، على خط ملوكها سليماً لمدة قرنين بعد هزيمة وفتح آيل على يد قتبان وترك لنا أن نستدل أن سيادة الأخير على معين، بعد فترة حكم فعالة أما أن يكون قد سقط نهائياً أو أصبح حكماً إسمياً. يبدو أن الاحتمال الكبير أنه خلال فترة انحطاطها في القرن الثامن قبل الميلاد، وما بعده، فقدت معين سيطرتها على أقاليم شمال الجزيرة العربية التي استولت عليها الإمبراطورية الآشورية القوية.

ندين بالفضل للنقوش الآشورية التي دونها الملك سرجون (٧٢٢ – ٧٠٥ قبل الميلاد) ونقوش الملك سناحريب (٧٠٥ إلى ٦٨١ قبل الميلاد) التي ساعدتنا على تحديد تاريخ نهضة سبأ إلى موقع الصدارة في جنوب الجزيرة العربية وانقراض مملكة المعينيين، وذلك حوالي عام ٦٣٠ قبل الميلاد. تم وضع حجر أساس لنهضة السبأيين إلى وقت يسبق هذا التاريخ بقليل (لنقل ٧٢٠ قبل الميلاد)، وذلك على يد آخر مكارب سبأ واسمه سمه على ينوف، الذي شيد سد رحب العظيم عبر وادي أذنه بالقرب من مأرب، لأجل ري تربة الدلتا الخصبة. ولم يقم ابنه يثع أمر بين (حوالي ٧١٥ إلى ٦٩٠ قبل الميلاد) فقط بترميم السد بعد الضرر الذي ألحقته به السيول، بل أكمل نظام الري المشهور في مأرب، وذلك ببناء سد آخر أكبر وأعظم يسمى حبض. ثم توجه اهتمامه بعد هذه الأعمال خلال السلم، إلى الغزو الحربي، وكانت حملاته الناجحة مستمرة وقد دعمها ابنه (أو حفيده) كرب آيل وتر. ثم امتدت هذه الحملات العسكرية الواسعة لمدة تقارب ٣٠ عاماً من عام ٧١٠ إلى ٦٨٠ قبل الميلاد. تحصلنا، في هذا المضمار، لأول معرفة لنا بتاريخ نجران.

إن تحلل معين كإمبراطورية قد زامله تفكك أقاليمها إلى مقاطعات مستقلة، بعضها لا تزيد حجمه عن مدينة، لكل منها حاكم يسمى نفسه ملكاً مراعاة

للأوضاع التي كانت سائدة ذلك الوقت. يبدو أن حضرموت وقتبان كانتا مملكتين حقيقيتين في ذلك الوقت وهما صديقتان لسبأ بل كانا في اتحاد معها. كان سمه وتر معاصراً ليثع أمربين في قتبان، وقد جاء بعده ابنه (؟) ودو آيل، حكم كلاهما الفترة من ٧١٥ إلى ٦٨٠ قبل الميلاد. تتابع ملوك حضرموت -ربما ما زالوا معتمدين اسمياً على معين وعليه فهم يتعاونون مع منافسهم- كانوا: سمه - يفع، وجاء بعده بالترتيب ابناه يدع آيل بين وملك كرب والذي جاء بعده ابنه آيل سمع ذبيان.

في تضاد مع هذه العناصر القوية الأساس هنالك زيادات لملوك ثانويين وسلالات ثانوية تنتشر فوق ملكية معين. كان لكمنه التي ربط هالفي بينها وبين أطلال بيضة على نهر خريد إلى الغرب من معين نفسها، ذات ثلاث سلالات لثلاثة ملوك ممثلة وجوداً مستقلاً، ربما امتد ٤٠ عاماً أو ما يقارب ذلك. وردت إشارة عن نشن، ويمكن مقارنتها مع خريبة السودة، غير أن هذا المكان كما يبدو من النقوش أنه كان يسمى كتل. هنالك حريم التي يبدو أنها في منطقة الجوف، والتي يمكن تطابقها مع مدينة الحرم الحديثة، ولها أربعة أو خمسة ملوك يمثلون ثلاثة أجيال ولقد ورد ذكر العديد من الأماكن والمقاطعات وورد أنها هزمت خلال هذه الحملات دون أية إشارة محددة لاسماء حكامها. ليس من الضروري أن نعيد قائمة أسمائهم هنا، غير أنه توجد ثلاثة أسماء قبلية إلى جانب اسم مدينة واحدة يعتقد بحق أنها تشير إلى أرض نجران والتي يبدو أنها ذكرت بالتحديد في فقرة أخرى من نقوش مأرب. الشخص الوحيد الذي ورد اسمه في مسار العلاقة لهذه المحافظة الشمالية للمملكة المعينية هو عضر آيل ملك محيمر مقاطعة أو قبيلة في منطقة نجران تشتمل أيضاً على قبائل (أو مقاطعات) أمير وعوهب.

يقرن اسم يثع أمر بين (في مـأرب) في النقوش المبكرة، باسم محيمـر وأمير مع معين نفـسها، بكونهم ضحـايا الحملة العظمى التي نتج عنها مـقتل ٤٥٠٠٠ رجل، وأسر ٦٣٠٠٠ آخـرين إلى جانب الاستـيلاء على ٣١٠٠٠ رأس ماشـية متضمنة جـمال وثيران وحمير وأغنام. يشار إلى مـدن مقاطعة محيمـر، متضمنة رقمات، العاصـمة فيما يبدو ومـقاطعة نجران بأنها أصبـحت خراب وقد حرقت. يبـدو أن هذه الأرض، مع ذلك، قد اسـتردت بعض ازدهارها القـديم تحت حكم كرب آيل وتر الذي اعـتلى كرسي الحكم في سبـأ حوالي عام ٦٩٠ قـبل الميلاد، ذلك لأن نقشاً لهذا الملك في سروه عند رأس وادي مـأرب، يشير إلى حملة ثانية نتج عنها مـقتل ٥٠٠٠ رجل من رجال مـحيمـر، ورجال أمير ورجـال عوهب، وأخذ ١٢٠٠٠ أسيـر والاستيلاء على ٢٠٠,٠٠٠ رأس مـاشية. اختـفت منطقة نجران بعد هذه الحملة من صفحات التاريخ إلى فترة من الزمن وليس لدينا ما يمكن عمله سوى التخمين بأن الـعاصمة رقمات، عاصمة المقاطـعة في القرن الثامن قبل الميـلاد، ربما تكون هي تلك المدينة في الأزمان اللاحـقة (الإسـلاميـة) التي يطلق عليهـا اسم الأخدود، لا توجـد صعوبة في مـساندة الاعـتقاد بأن البـناء الضخم لقلعتها العظيمة يعود تاريخه إلى ذروة سيادة المعينيين.

ورد اسم نجـران مرة ثانيـة في مسـار الحديث عـن الحملة المشـهورة للقـائد الرومانـي إليوس جالـيوس Aelius Gallus عام ٢٤ قـبل الميلاد، كـما انتـهت المسيرة لقتبان، منذ وقت يعود إلى قرن إلى الوراء، على يدي ملك سبأ آيل شرح يحـضب وهو أول من أعلن نفـسه، عـام ١١٥ قـبل الميلاد ملـكاً على سبـأ وذو ريدان. أصبحت دولة سبـأ، بعد ضم قتبان إليهـا، ولمدة طويلة العامل السائد في سيـاسة جنوب الجزيرة العـربية إلى جانب حضـرموت، الدولة الوحيـدة الأخرى

المستقلة في هذه المنطقة. ربما كان الملك على حضرموت أثناء الحملة الرومانية هو سلفان (أو الحان) والد آيل عز يلت، الذي اعتلى العرش عام ٢٩ قبل الميلاد -يطابق اسم الحاكم الذي كان اسمه إليزوس في كتاب بربولس-[١] غير أن الشخص الوحيد الذي ذكره سترابو في هذا المضمار هو الأساورس رئيس الرحمنين ولا يتوافر لدينا أي إثبات نتعرف عن طريقه على ملك سبأ وذو ريدان -سمي سابوس بواسطة سترابو-، الذي كان يحكم ذلك الوقت.

نعلم بما لا يدع مجالاً للشك، مهما كان الأمر، أن إليوس جاليوس قد زار نجران، أو نجرانه كما ورد في سجل سترابو، وهو في طريقه إلى الجوف وأن معركة اسكه أو نسكه -نشق كانت على نهر خريد-. وأنه استولى على نسكه وفقد رجلين فقط من رجاله مقابل ١٠,٠٠٠ قتيل في صفوف الأعداء -نلاحظ لمسة حديثة حول هذه الأرقام- وقد استولى على اثرله -تقع إلى الجنوب ولكن لا يمكن التعرف عليها في وقتنا هذا- دون مقاومة. وقام بحصار مرسيابه، والتي جاء وصفها بأنها مدينة الرحمنين تحت رئاسة الأسورس واستمر الحصار لمدة ستة أيام. ثم اضطر إلى رفع الحصار بسبب ندرة المياه، وانسحب إلى نجرانه، التي وصلها خلال تسعة أيام. ثم واصل هذا الانسحاب إلى أن وصل إلى مكان يسمى «الآبار السبعة» (بئر سبعة) خلال ١١ يوماً. ورد ذكر شلَّه وملوثس (Malothas) بأنها قرى يقابلها المرء في المسيرة إلى الشمال نحو أكرا (Egra) (مداين صالح) داخل أراضي عبادة (Obodas)، وهو حاكم نبطي عاصر (Aretas) الحارث. يمكن

(١) كتاب إغريقي ألف بواسطة أحد البحارة خلال القرن الأول قبل الميلاد أو الميلادي وترجمة الاسم الكامل هو «الطواف حول البحر الأريتيري» ويحتوي على معلومات مهمة عن مدن وموانى البحر الأحمر وبحر العرب. (المراجعون).

الوصول إلى أكـرا خلال ٤٠ يوماً مـن عند بئر سبـعة، التي تتطابق مع خـميس مشيط من حيث المبدأ. وعلى هذا الأساس فقد تكوَّن شلة (قلعة) هي الواحة التي تتمركـز في قلعة بيشة، وربما كانت مـلوثس هي تربة أو الخرمة[١]. تقع الصحراء فيمـا يلي هذه الواحات حتى المدينة -كانت تعـرف باسم يثرب- ومن الغريب ألا يذكر سترابو هذا المركـز التجاري الهام. يمكننا فقط أن نخمن أنها قـد تم تحاشيها عن قصـد بواسطة الدليل الغادر واسمـه سيلوس والذي كان غرضـه الأساسي هو تحطيم قوة الحملة الرومانية. وقد قطع رأس سيلوس في نهاية الأمر في روما، غير أن هدفه كان قد تحقق. تمكن جزء صغير من جيش الاحتلال الروماني، الذي فقد سبعة رجـال فقط في المعركة ضد العرب من الوصول إلى بر السـلامة في مصر. وهجرت روما أي فكرة لها لتمديد سلطتها فوق جزيرة العرب.

إذا كانت مـرسيـابه، خطأ هجائي لـ مـريابه (Mariaba) (مأرب) وقع فـيه سترابو، أو ناسخ -وهذا هو المرجح-، فيمكننا أن نتعرف على الأسورس، ورئيسها آل شرح يحـمل والذي قد يكـون أحد ملوك سـبأ وذو ريدان في وقت مـا بين عام ١١٥ قبل الميلاد و ٣٠٠ بعـد الميلاد. غير أننا ما نزال بعيـدين جداً من أن نستطيع التعـرف على الرحمنيين إلا أنهـا قد تتطابق مع أية قبـيلة أو مجـتمع في الماضي أو الحاضر إلاَّ إذا تطابقت مع ردمان أو ريمان وكلاهما معروف لنا من النقوش. يمكننا، على أية حال، الافـتراض من حيث المبـدأ، أنه عندما زار الجيش الرومـاني نجران، كانت تلك المقاطعة هي أقصى منطقة في شـمال مملكة سبأ وذو ريدان. وذكر مؤلف البربولس، بعد قرن من الزمان، كما ورد من قـبل، أن شخصاً بعينه يسمى اليزوس

(١) هذا استنتاج غير مؤيد بدليل (المراجعون).

(Eleazos) (آيل عز) كان ملكاً على بلاد البخور (حضـرموت) وأن عاصمته كانت سباثه (Sabbatha) (شبوة). لا نعلم إذا كان هذا الملك هو ابن سلفان، كما اقترح أعلاه، والذي ربما كان ملكاً على جاليوس في الوقت الذي كـانت فيه حملة اليوس جاليوس، ومهما كان الأمر، فهذا لا يهم كثيراً. ربما كان آيل عز هذا هو حفيد آيل عيز يلت نفسه، وفي هذه الحالة فإن فترة حكمه لا بد وأن تكون قد امتدت من عام ٢٥ إلى ٦٥ مـيلادية. ويـكون بذلك معـاصـراً لابن الحارث، ملـك النبطيين أثناء الحمـلات العربيـة التي قام بها اليـوس جاليـوس، وهم بالتحديـد وبالاسم: مالك (Malichus Malcus)، الذي حكم من عام ٤٠ بعد الميـلاد إلى ٧٠ بعد الميلاد، وكـان أخا زوج هيـرود انتبـاس، حاكم الجـزء الرابع من الجليل وزوج أم سـالوم. وشخص آخر مـعاصر لهذين الملكين ورد ذكره في البـربولس باسم شرابيل (Cha-ribacal)، يبدو، على رأي جلاسر أنه يتطابق مع كـرب يل وتر يهضم، ملك سبأ وذو ريدان، الذي حكم في الفترة ٤٠ بعد الميـلاد إلى ٧٠ بعد الميلاد، وربما –علما بأن العلاقـة لا يمكن إثباتهـا بالرجوع إلى النقوش المـتوافرة– كـان الحفيـد آل شرح يحمل، الذي ربما كان ملكاً أثناء فترة الحملة الرومانية، وربما كان حفيد حفيد الحفيد للشرح يحـضب (الفترة ١١٥ – ٩٠ قـبل الميلاد) وهو أول ملوك سـبأ وذو ريدان. على أي حـال، فإن كرب آيل وتر يهـضم كان بكل الاحـتمـالات هو سيـد نجران المعترف به خلال منتصف القرن الأول الميلادي.

دخلت نجران مرة أخرى إلى النسيـان كتابع تحت حكم سيطرة المملكة الجنوبية الكبـرى. ظلت نجران بدون شك، كـما كانـت من أزمان بعيـدة، مركـزاً للديانة الوثنية السـائدة وكان لها كـعبتهـا وكان لها موسم حـجها السنوي، مـثل صنعاء ومكة. كانت هنالك أديان أخرى، في هذه الاثناء، مثل المسيـحيه واليهودية. تؤثر

هذه الأديان في الأجزاء الشمالية للجزيرة العربية، حيث الإمبراطوريات المتنافسة. البيزنطية والفارسية، واللتان كانتا في صراع دائم، وكذلك إمبراطورية الحبشة حيث تم تأسيس المسيحية تحت فرومنتيس، أول قسيس، في تاريخ يرجع إلى عام ٣٥٠ بعد الميلاد. كان مركز اليهودية في ذلك الوقت هو يثرب (المدينة) كما يوجد دليل على أن عملية التحول من دين لآخر بواسطة الجاليات اليهودية والمسيحية كانت جارية على قدم وساق في جنوب الجزيرة العربية في ذلك الوقت. يبدو أنه من المحتمل أن المسيحية دخلت هذا الحقل، قادمة من قاعدتها في الحبشة. انهزمت محافظة حضرموت قبل نهاية القرن الثالث (حوالي ٢٩٠ بعد الميلاد) وتم إدخالها في حكم شمر يهرعش. الذي تبنى ووسع لقب ملك سبأ وذو ريدان فأصبح، ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات.

أثارت جنوب الجزيرة العربية وثرواتها في هذا الوقت طمع ملك اكسوم (الحبشة) والذي تمكن من أن يهزم في حوالي عام ٣٤٠م خليفة شمر يهرعش، ومن ثم دمج مملكة الأخير (يعتقد أنها تضم نجران)، واتخذ اللقب: ملك اكسوم وحمير وريدان وحبشات، وسبأ وسلح وتهامة.

استمر الاحتلال المؤثر اللامباشر على جنوب الجزيرة العربية -وقد حكمها الملك الأميده وخلفاؤه- مدة ٢٧ عاماً فقط، وذلك لأنه في عام ٣٧٥م، استعاد ملك كرب يهمين ولعله ابناً أو حفيداً لشمر يهرعش، العرش، ومن المحتمل أن نوعاً من السيطرة الأكسومية على المناطق الساحلية قد استمر في منافسة مع المملكة المحلية. في كلمات أخرى، حافظت المسيحية على ضغطها على الوثنيين في جنوب الجزيرة العربية، والذين كما يحق لنا أن نتصورهم، قد بدأوا يفقدون الثقة في الدين القديم ورجاله.

تطلبت السياسة في مثل هذه الأحوال، إجابة شافية للتحدي المسيحي، وكانت الإجابة الصريحة، هي اليهودية. لا بد وأن الكهنة من المدينة قد تم تشجيعهم في مجلس ملك كرب (٣٧٥ إلى ٣٨٥م) للدعوة إلى تدريس مبادئ اليهودية، غير أنه لا يبدو أن الملك نفسه تبنى اتجاهاً محدداً في تفضيل الدين اليهودي الجديد، إلاَّ أنه بلا شك يؤدي مهمة سياسية مفيدة له في مقابلة المسيحية الحبشية التي يساندها البيزنطيون. كان مصدر القوة الأكثر فائدة هو التقارب إلى فارس المنافس الرئيس للإمبراطورية الرومانية.

اعتنق ابن ملك كرب وخليفته أبو كرب أسعد (٣٧٨ – ٤١٥م) اليهودية[١]، وسافر لتدعيم هذا الاعتناق في الدين، إلى المدينة في بعثة حج، إمَّا لأجل احتمال التحول على الدين اليهودي أو لإكساب الأمر أهمية إعلامية واسعة خلال مملكته. لقد استخدم في حملة الحج هذه الأفيال، وبصورة بارزة، وقد عاشت هذه الظاهرة في التراث العربي إلى هذا اليوم. كما أن درب الفيل، الذي استخدم بعد قرنين من ذلك الحدث، حينما سلكه أبرهة إلى مكة لا يزال يسمى درب أسعد كامل إلى جانب تسميته باسم درب الفيل. ويطغى الاسم الأول في الاستخدام المحلي.

صاحب تبني الملك الديانة اليهودية تسامح تام للتعاليم الوثنية لدى تابعيه، ولم يعرف عن شقيقه ورا – أمر ايمان الذي ربما يكون قد خلفه على العرش، أنه بدوره قد تبنى اليهودية. إلاَّ أن حفيده وخليفته شراحبيل يعفر، كان يهودياً أيضاً، وذلك لأنه خلال فترة حكمه (٤٢٠ إلى ٤٥٥م) قام بإعلان ارتداده عن آلهة بلاده

(١) لا يوجد في نقوش هذا الملك ما يدل على اعتناقه اليهودية. وكما يشير فيلبي لم يعتنق ابنه أو أحفاده اليهودية. (المراجعون).

الوثنية وفضل اتباع إله السماوات (ذو سموات). كان هذا، على أي حال، تنازلاً أثرت فيه اليهودية، في تفضل التوحيد غير أن ذلك لا يربط الملك بالضرورة باليهودية فضلاً عن ارتباطه بالمسيحية. اشتهرت فترة حكمة بظهور صدع في سد مأرب العظيم وقام بصيانته الفورية عام ٤٤٩م. كان خليفته عبد الكلال، والذي يظهر أنه قد اغتصب العرش، والذي وربما كان شيخاً لقبيلة، قد تمكن من قيادة تمرد ناجح، ربما بمساعدة مملكة أكسم، ضد سيده الإقطاعي، وربما كان (مما يدل اسمه) كاهناً من عبدة إلهة الوثنين، يحاول أن يوقف التمرد العظيم ضدهم.

استمرت هذه الفترة التي خلا فيها العرش بوفاة الملك مدة خمس سنوات وفي عام ٤٦٠م التقطنا الفرع الشرعي للملوك الذين أعيدوا إلى العرش، مع تمديد لفترة حكمهم على حساب المستعمرات الأكسومية كما يلي: شرح بع آيل ياكف (من ٤٦٠ - ٤٧٠م)، ولعله حفيد شرح بع آيل يعفر والذي زاد من لقبه بإضافة الفقرة: وأعرابها في الجبال وتهامة، إشارة إلى امتداد نطاقه الاستعماري، غير أن الأكسوميين واصلوا حربهم عليه من عند رؤوس جسورهم التي أصبحت ضيقة في ساحل الجزيرة العربية. لا توجد لدينا معلومات عن الدين المعترف به لدى شرح بع آيل ياكف وأبنائه الثلاثة الذين خلفوه بالتتابع على العرش، غير أننا نعتقد أنهم كانوا من الموحدين، وربما كانوا يهوداً.

كان اسم الملك الثاني مرثد إيلان[1] (٤٩٥ - ٥١٥م)، وهو اسم يشير إلى تمرد قبلي آخر وفترة حكم كانت بلا ملك، ربما وقع التمرد بمساعدة الأكسوميين

(١) أوضح نقش اكتشف حديثاً، أن هنالك ملكاً يسمى معد يكرب يعفر، اعتلى العرش عام ٥١٦م وربما يكون الذي قد خلف آخر أبناء شرح بع آيل ياكف. (المؤلف).

وكان اتجاهه هو الاتجاه المسيحي (أو وثني). ونصل بذلك إلى نهاية الخط الطويل إلى آخر حكام سبأ وإمبراطوريتها ذو نواس، الذي اعتلى العرش حوالي عام ٥١٨م واغتيل أو قتل في إحدى المعارك بعد سبع سنوات لاحقه، حينما انتقلت كل جنوب الجزيرة العربية إلى أيدي الأحباش لمدة نصف قرن من الزمن إلى أن هزمها واحتلها ملك فارس كسرى الأول عام ٥٧٥م.

كانت فترة حكم (ذو نواس) فترة نكبة على نجران، وقبل أن أدخل في هذا الموضوع، أود أن أعود إلى الوراء قليلاً، لأشرح لمَ كانت نجران مؤهلة للمشاكل. حينما خرج الملك أب كرب أسعد (أسعد كامل) إلى الحج إلى المدينة للاعتراف رسمياً بالدين اليهودي (لنقل حوالي عام ٤٠٠م) سلك طريقه إلى غرب نجران على الطريق الذي يقود من صعده إلى ظهران. لا يوجد لدينا إثبات عن حالة النمو الديني في نجران آنذاك. لكنه يمكننا الافتراض، باطمئنان، أن آهلوها لا يزالون مخلصين للخدمات المريحة للآلهة الوثنية القديمة. جلب المسافرون إلى المدينة وما يقع إلى الشمال منها على طريق التوابل، معلومات عن مبادئ وتطبيقات اليهود والمسيحيين غير أنه من الممكن القول، باطمئان، أن نجران ظلت خارج نطاق الدعاية اليهودية والمسيحية. لقد رأينا كيف تمت الدعوة لليهودية لدخول اليمن الأصلي لموازنة تغلغل المسيحية الحبشية، غير أن الأخيرة هذه لم تصل نجران بالتأكيد من جانب ساحل البحر الأحمر ومن المشكوك فيه أن تكون اليهودية قد حققت أي تحولات في الدين في المقاطعة.

كُتب على القرن الخامس أن يعرِّض نجران للتأثيرين، ويبدو أن المسيحية التي جاءت من ناحية الشمال قد كسبت الرهان باكتسابها للروح المحركة لنجران بسهولة. تبدأ القصة بالانشقاق السوري الذي يسمى النسطورية الذي هز أسقفية

أدسا (Edessa) (تطابق عرفة الحديثة) عـام ٤٣١م. دار النزاع حول موقع نشأتها مـدة ربع قرن حـتى عام ٤٥٧م، وقـد حُـرم النسطوريون كنيـسياً، وطردوا من الأراضي البيزنطيـة. فلجأوا إلى حماية ملك فارس الطيب، وتحـصلوا منه عليها، وأقامـوا مركزهم الرئيس في نيـسبين (Nisibin)، ولهم مطلق الحرية في الدعوة لعقيدتهم لدى كل مواطن فارس ما عدا الزرادشتية. وصلت دعايتهم بالطبع، إلى العرب الوثنيين وكـانت مملكة الحيرة المهمـة أول فتح لهم. انطلق النسطوريون من هنا عبر الصحراء العربية، ونعرف تماماً أنه من زمن محمد (صلى الله عليه وسلم) كان هـنالك مجـتمع مـسيحـي منظم في اليمـامة، جنوب الرياض. يقـود طريق للجمال نظامي من هنا عبر الأفلاج ووادي الدواسر إلى نجران، ويعتقد أنه من هذا الطريق وصلت البعـثة السورية الفميـون إلى نجران للدعوة إلى ما أسمـاه الدكتور دي. جي. هوجارث D.G.Hogarth بدعة كولريديان التي تتضمن عبادة العذراء مريم كآلهة، وذلك بأن تقوم النسوة بتقديم قرابين الكعك إليها.

لا أدري على أي مـرجع ارتكز الدكتـور هوجارث في سـرد هذا الأمر بهـذا التفصيل، غير أنه يبدو أن فميون كانت مهتمة بالدعوة إلى النسطورية العادية وكان ذلك هو الصورة للمسيحية التي تبعها أهل نجران وأهملوا بذلك آلهتهم الوثنية وبلا اعتبـار للتعاليم الوحـدانية التي وصلت إلى العرب في جنوب الجزيرة العـربية من ناحية الحـبشة وتأسست في مقـاطعة بني غسان عند الحدود السـورية. ترتكز قصة زيارة فميون إلى نجران على الروايات، وليس على سند محدد. كما لا ندري متى كانت. غـير أن المسـيحـية قد تأسـست في ثبات في نجـران في زمن (ذو نواس) (٥١٨-٥٢٥م)، ويمكننا أن نفـترض أنهـا احتوت على جـيلين حتى ذلـك اليوم. يمكننا كذلك أن نخـمن أن عام ٤٧٥م أو قبلـه قليلاً، أنه هو تاريخ زيارة فمـيون

والافتراض بتولي الأسقفية للسيطرة على الشؤون الكنيسية في المحافظة، في موازاة مع الإدارة المحلية التي يقوم بها شخص يسمى عقب تحت السلطة العليا للسيد أو الرئيس المحلي.

يبدو أن نجران قد استوعبت المسيحية بسهولة وطورتها إلى مجتمع قوي أو حتى متعصب، على أساس الكنيسة الكاتدرائية، التي أضاف إليها في وقت لاحق الإمبراطور البيزنطي هدايا قيمة من المرمر والموزاييك لأجل أن يوطد دعواه في مجال تأثيره في هذا الإقليم ضد التوسع المحتمل للطموحات الفارسية. لا ندري إن كان فميون قسيساً، وإن كان هو كذلك، فلا ندري كم من الزمن استغرقه ذلك. كما لا ندري إن كان عبدالله بن الحارث رجل دين جلس على الكرسي الأسقفي أو سيداً على نجران خلال الربع الأول من القرن السادس. نعرف بالتأكيد أن رجل الدين الوحيد في نجران، هو قس بن ساعدة الذي جلس على الكرسي الأسقفي في الجزء الأول من القرن السابع إلى أن تم إبعاد كل ما تبقى من المسيحية من المقاطعة بواسطة الخليفة عمر (٦٣٤ - ٦٤٤م). على أي حال، فمنذ بداية القرن السادس فإن مسيحيي نجران كانوا يبدون متعصبين بالدرجة التي دفعتهم إلى رفض دخول اليهود، ومع هذا فهناك بعض الدليل على أن نجران كان بها بعض العناصر اليهودية في ذلك الوقت، وربما أبعدوا فقط من منطقة المدينة. لا بد أن يكون تطور تهويد مجلس سبأ قد أغضب مسيحيي نجران، وأن قبول ذو نواس، وهو يهودي متعصب، لاعتلاء العرش قد خلف بعض التوتر.

تقترح الروايات -برغم أن صحة تلك الروايات يشوبها الشك- أنه خلال فترة حكم (ذو نواس) زار نجران يهودي ومعه إبناه وتم القبض عليهم وقد عرض عليهم الردة أو القتل. ارتد الأب أو تظاهر بذلك، وتمكن بعد فترة، من الهرب إلى (ذو نواس)

يطلب منه الانتقام. قبل الملك هذا التحدي، ووصل إلى نجران ومعه جيش، وعرض على سكانها كلهم إما القتل أو الالتحاق بالعقيدة اليهودية. أحجم القليلون أمام هذه المحنة وتم حفر خنادق ضخمة بأمر الملك وملئت بحزم الخشب وأمر عبدالله بن الحارث ورفاقه المسيحيون باعتلاء الخشب، بينما أشعلت النيران في الأعواد المقطوعة. فيما عدا بعض الهاربين من عقاب الملك، فإن كل سكان نجران قد حرقوا وهم أحياء في أعظم محرقة، واهتز العالم المسيحي رعباً.

كانت هذه الحادثة هي التي أكسبت نجران اسم الأخدود أو الخنادق، وأكسبت كذلك زرعة ذو نواس (مجعّد الرأس)، إلياس يوسف (اسمه اليهودي)، ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في الجبال وتهامة، مثالاً للانتقام يحتذى به تم بواسطة ملك أكسوم، كالب الأصبحة، مع تشجيع ودعم إمبراطور البيزنطيين. تقدمت جيوش الأحباش بقيادة القائد أبرهة الأشرم[١] نحو عاصمة السبئيين، ربما كانت ظفار في ذلك الوقت، في عام ٥٢٤ أو ٥٢٥م، وأكمل الاحتلال في سنوات لاحقه لكل جنوب الجزيرة العربية. هرب ذو نواس نفسه إلى التلال، غير أنه طورد هناك وقتل بعد فترة. لقد أُنتقم لشهداء نجران، وبعد مُضي حياة طويلة في ظلال الاستقلال كواحدة من القوى العظمى في وقتها، والتي عاشت إلى عمر يصل إلى ١٨٢٥ عاماً، أصبح جنوب الجزيرة العربية كله مجرد محافظة تابعة للإمبراطورية الأكسومية.

(١) لم يكن أبرهة هو الذي قاد الحملة على جنوب الجزيرة، بل جعل القائد أحد الأمراء الحميريين ويدعى السميفع أشوع، والذي أقصاه أبرهة فيما بعد عندما استقل بجنوب الجزيرة عن الحكم الحبشي. (المراجعون).

تم تعيين الرئيس المسيحي واسمه السميفع لرتبة ملك بواسطة المنتصر الحبشي والحاكم العام، أبرهه، والذي ولفترة ٥٠ عاماً كان الشخصية السائدة في السياسات العربية. يبدو أبرهة حقيقة، وكأنه يمثل شيئاً أكبر من مجرد مكانة ملكية في مجلسه ولربما استخدم اللقب الملكي في الاعتماد الهش على الملك الأكسومي رمحيس ظبيمان، ابن أو حفيد، كالب الأصبحة. كان هذا على كل حال، هو الموقف عام ٥٤٢م، حينما أجريت صيانات أخرى على سد مأرب الذي أضرَّت به السيول مرة أخرى، بأمر منه وتم تسجيل ذلك على النقوش، يبدو أن السميفع قد أبعد من منصبه (أو توفى) قبل هذا بقليل، وكان على أبرهه أن يقمع تمرداً نظمه ابنه وبعض نبلاء سبأ، بما في ذلك يزيد بن حبشات الذي تم تعينيه حاكماً على قبائل كدات (كنده).

يبدو أن تجربة الحكومة غير المباشرة قد تم هجرها، واشتهر اسم أبرهه إلى علو أكثر دفع حتى البيزنطيين والفرس إلى إرسال الوفود إلى مجلسه، فضلاً عن الدول شبه المستقلة في الحيرة وسوريا. أصبح مجلس أبرهة مركزاً للسياسة الدولية والخداع. كانت العلاقات التقليدية لأكسوم، بالطبع، مع البيزنطيين ضد فارس، وكان مما لا شك فيه أن الإمبراطور الروماني، والذي كان في طموحاته أن يتمكن من السيطرة على طريق التوابل وعلى ثروة الجزيرة العربية، هو الذي أوعز إلى أبرهة بالمسيرة المشهورة على مكة، والتي كانت تمثل حرباً صليبية ضد الوثنيين. وكما فعل إليوس جاليوس منذ ستة قرون خلت من قبله، فقد وجد أن الصحراء عامل مشتت عظيم للقوة العسكرية، وكانت حملته فاشلة تماماً.

كان إخفاقاً لأبرهة على مستوى الكارثة، وذلك لغيابه من اليمن، ولضعف قواته، مما أمدَّ كسرى الأول بالفرصة الملائمة للتدخل في شؤون جنوب الجزيرة

العربية والتي كـان ينتظرها. إذ قام بإرسال جيش فارسي لاحتـلال الجزيرة العربية بمجرد أن عُرف أن أبرهـة يواجه المتاعب مع حملتـه الصحراوية[١]. كان هذا عام ٥٧٠م، عام مـولد الرسول محمـد (صلى الله عليه وسلم) في مكة، عـام الفيل المشهور. وقد سميت كذلك لأن جيش أبرهة كان مدعماً بعدد من هذه الحيوانات. كما انتصـر الفرس في العام نفسه أو قليلاً بعده على الأحبـاش، واستبدلوا الحكم الأكسومي في الجـزيرة العربية بحكام عينهم كـسرى. كان وهريز أول هؤلاء، ولا ندري كم كان عدد الحكام القائمين بالعمل في الفترة التي تفصله عن بذان آخر من عيّـنه الملك العظيم. بدأ محـمد (صلى الـله عليه وسلم) في هذا الوقت دعـوته العلنية، وبوفاة كسرى عام ٦٢٨م اعتنق بذان الإسلام وأعلن خضوعه للنبي محمد (صلى الله عليـه وسلم). فصلت فـترة تقل من القـرن الواحد، للحكم الحـبشي والفارسي بين سقوط الإمبراطورية العربية الأولى وصعود الثانية والتي كتب لها أن تكون ذات ارتدادات عالمية أبعد كـثيراً وأكثر إثارة من سابقتـيها، لقد نقل الجنوب المتفسخ الكرة الآن إلى ملعب الشمال النشط.

نعرف أن قس بن ساعدة، كأسـقف نجران في ذلك الوقت، كان على اتصال بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وإن لم يكن ذلك شخصياً. ونعلم أن النبي محمداً (صلى الله عليه وسلم) -ربما على ضوء ما كان يدور بينهما من مناقشات- مدَّ من تسامحه مع المسيحيين في نجـران. وكما نعلم من آيات قرانية أن مرور قرن من الزمـان لم يمح من الذاكرة وحـشيـات نجران والتي ربما سـاعدت على تبـرير

(١) قدمت الحملة الفارسـية بطلب من الأمراء الحميريين في سنة ٥٧٤م أو ٥٧٥م، فـقد تولى بعد أبرهة ابنه يكسوم ثم أخيه مسروق وليس بعد فشل حملة أبرهة. (المراجعون).

التشديد المتواصل لنهج النبي (صلى الله عليه وسلم) ضد اليهود الخارجين على الطاعة في المدينة[١]. ﴿ **وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾** ﴾[٢].

لا يوجد سبب مقنع يجعل المرء يتشكك في أن هذه الآيات لا تشير إلى شؤون الأخدود والتي يمكن إرجاعها بالتدقيق إلى سنة ٥٢٢م، أي لفترة قرن كامل قبل الهجرة، ذلك لأنه في تلك السنة كانت حملة الأحباش التأديبية ضد ذو نواس. يتضح لنا أن المسيحية واصلت مسارها وسلطتها في نجران بعد هزيمة وموت الملك عام ٥٢٥م ولفترة استمرت مدة قرن كامل من الزمان.

تعد نجران في الروايات، آخر معقل للمسيحية في الجزيرة العربية، برغم ما يفيد وجود اليهود في المنطقة خلال هذه الفترة. غير أنه يمكن الافتراض بأن التغلغل اليهودي لم يُشجع بعد أحداث الخنادق. برغم ذلك، فقد أسست اليهودية موقعها بثبات في المناطق الجنوبية في اليمن في موازنة للاستعمار الحبشي وقد شجعها على ذلك، أو احتمل الفرس منها ذلك، لأسباب سياسية أثناء صراعهم مع البيزنطيين. امتد الحكم القضائي في خلافة عمر (٦٣٤م – ٦٤٤م) في الجزيرة العربية ضد أي تسامح مع أي عقائد منافسة للإسلام، وكانت اليهودية في موقع

(١) لم يتشدد الرسول –صلى الله عليه وسلم– مع اليهود بسبب حادثة الأخدود وإنما بسبب مواقفهم المعادية للإسلام وللرسول –صلى الله عليه وسلم–. (المراجعون).

(٢) سورة البروج، الآيات: ٣ – ٩.

أحسن من المسيحية في مقاومة تطبيق ذلك. لقد بقيت اليهودية حية في مواجهة التحدي، وعاشت حتى اليوم في جنوب الجزيرة العربية[١]، بينما أزيلت المسيحية تماماً، لكيلا ترفع رأسها في الصحراء مرة أخرى.

هكذا كانت هذه الخلفية التاريخية والتي على ضوئها ننظر الآن في أطلال العاصمة نجران. يعرف هذا الاسم منذ القديم -لعل الاسم هو للمنطقة وليس للمدينة والتي قد يكون اسمها رقمات- منذ القرن الثامن قبل الميلاد، ولربما يعود إلى أزمان أبعد لا نعلم عنها شيئاً، قبل الظهور المتكامل للمعينيين والقتبانيين في مطلع القرن العاشر قبل الميلاد. من المؤكد أن تقودنا الحفريات إلى أزمان العصر الحجري في وادٍ لا بد وأن يكون مأهولاً في زمن عرف فيه الإنسان الزراعة. قد يعود تاريخ القلعة الضخمة للأخدود إلى الأيام الأولى في التاريخ المعينيين لا بد وأنهم استخدموا أساليب الري في هذا الوادي الواسع الخصب قبل أن ترقى سبأ وتكتسب أهميتها ببنائها لسدودها العظيمة. وذلك لأن الطبيعة في نجران لم تترك للإنسان شيئاً في مجال البناء ليقوم به. يبدو من الغريب أن نجران لم تبرز على مسرح التاريخ كدولة مستقلة أو عاصمة استعمارية، غير أنها قد تكون، كما هو حال مكة، مركزاً عاماً للحج والاحتفالات الدينية لكل الأمم المجاورة. لم يكن امتلاك كعبة شيئاً مميزاً في الجزيرة العربية القديمة.

ستكون نجران، في يوم من الأيام وهي تلك المدينة القديمة العظيمة، والتي تسمى الآن الأخدود ، مركزاً للتنقيب والفحص بواسطة خبراء آثار مقتدرين[٢]. لم أحاول توقع نتائج أعمالهم واكتفيت بأن أقوم بدراسة موسّعة على الإثباتات

(١) لم تستمر اليهودية في جنوب الجزيرة العربية وإن وجد بعض اليهود فقط (المراجعون).

(٢) هنالك إعداد لإجراء بحث أولي بواسطة بروفسور ريكمانز حدد له شتاء عام ١٩٥١ - ١٩٥٢م. (المؤلف).

المتوافرة على السطح وبعمل مخطط للنسق العام للمدينة. تمتد المدينة بلا نظام وبلا شكل محـدد على الجانب الأيمن لوادي نجران على سهل يكسـوه جنبات خفـيضة ينحدر في لطف إلى سـفوح التلال التي تصطف على الوادي من جـانبه الجنوبي. يحتمل أن هذا الوادي الذي يبلغ عرضه ميلاً واحداً وطوله ٣ أو ٤ أميال، قد تمت زراعته في أزمـان سابقة عندما كان نظام الري عـاملاً. لا تزال هنا وهنالك بعض آثار القنوات القديمة ظاهرة، بينما امتد شريط من بحـيرات ومستنقعات على جانب الوادي دون الحديث عن الزراعـة الحديثة التي تعـتمد جزئيـاً على السيول وجـزئياً على مياه الآبار – يكشف هذا الشريط عن الإمكانيات الزراعية لهذه المساحة وكيف كانت وكيف ظلت دائماً. هنالك الكثير من الأدلة لوجود قنوات وبحيرات صناعية أو خزانات في الجوار المبـاشر للمدينة. قد تكون المدينة كلها قد أحـيطت من جهة اليابسة بقناة تنطـلق من الوادي وعند جانبه الأعلى، وتصب فيه مـرة أخرى أسفل المدينة. تبدو القلعة، على أي حال، وكأنها مـحاطة تماماً بخندق مائي يفصلها عن بقية المدينة.

تحـتل القلعة الـطرف الجنوبي الغربي لـلحقل المدمـر، ولربما كـانت السمـة الوحيدة، التي ظلت قـائمة من العاصمة القديمة، أمـا الأجزاء الأخرى من المدينة فبالتـأكيد يحمل ادعاء نقش كرب آيـل أنها قد تحولت إلى خراب وأضرمت فـيها النيران، لقد اهتـز حتى البناء الصلد القوي للقلعة من الحدث، ولا يسـتغرب المرء أن يظن أنه كان نتاج لـزلزال، أكثر منه لعمل بشري، ذلك الـفعل الذي قادها إلى حالتـها الحاليـة الشديدة الدمار. لا يزال الجـدار الخارجي، على أية حال، قـائماً سليمـاً إلاَّ من بعض الأجزاء المحطمـة، ويمكن متـابعتـه بسهولة، وكـذلك يمكن التعـرف على العديد من الأبـنية الداخليـة بما تبقى من جـدرانها القائمـة. غطت

العديد منها الرمال أو الطمي ونمت فوق هذا نباتات الصحراء، مثل الأراك والأثل وما شابه ذلك، غير أن انطباعي العام أن كل سقف لأي بناء قد اختفى، وهذا يمدنا بتفسير معقول بأن البناء الفوقي لهذه الأبنية كان من الخشب عندما نُهبت المدينة.

لا يبدو من المحتمل أن الأمراء والرهبان في نجران كانوا يسكنون الطوابق الأرضية فقط، كما لا يبدو أن هنالك طوابق ثانية مبنية من الحجارة. كانت القلعة ذات شكل مستطيل غير منتظم، ذات نتوءات عديدة وزوايا كازَّة بخاصة على الجدار الشمالي وإلى درجة أقل على الجانب الجنوبي، كانت الجدران الغربية والشرقية مستقيمة نسبياً. ويبدو أن المدخل الرئيس للقلعة كان من جهة الزاوية الشمالية الشرقية في مواجهة المدينة. تقع المدينة تقريباً عند مربع نقاط الجهات الأصلية للبوصلة وداخل مربع ٢٥٠ ياردة وهي مجموع طول الجدارين الغربي والشمالي. كان طول الجدار الجنوبي ٢٣٥ ياردة، بينما كان طول الجدار الذي يصل بين الأطراف الشرقية للجدارين الجنوبي والشمالي، ١٧٥ ياردة فقط. كان طول المائل القطري من تجاه الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ٣٤٠ ياردة، بينما كان طول المائل الآخر، -من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي- حوالي ٣٠٠ ياردة، وعليه، تحتل القلعة مساحة ٥٧٠٠٠ ياردة مربعة أو أقل قليلاً من ١٢ أكرات.

لعل الدمار الذي أحدثه السيل كان أكثر مما سببه العدو، ويدعم هذا القول أن جزءاً كبيراً من الجدار الغربي كان في حالة أسوأ بكثير مقارنة بالأجزاء الأخرى. إذ أن هذا الجانب من الجدار مكشوفاً تماماً لعنف السيول الموسمية بمجرد أن أهمل المكان وما تبع ذلك الإهمال من انهيار لنظام الري أو التصريف. يشير تراكم الطمي في هذا الجزء الجنوبي للقلعة، مقارنة في تضاد مع تراكم الرمال المنقولة في

الجزء الشمالي، بأن السيول قد اخترقت هذه المنطقة وهذا الاقتراح يدعم أيضاً بوجود ثغرات على مستوى أصغر في الجزء الجنوبي للجدار الشرقي. ظلت كل بقية الجدران الأخرى سليمة تقريباً. كان من أحسن التراكيب التي سلمت داخل القلعة مجموعتان من مبانٍ فخمة ذات بناء ضخم كان أحدهما في موقع مركزي، وكان الآخر بينه وبين المدخل الرئيس الفخم الثاني. كانت كتل الجدران المدمرة بجوار هذه المجموعة الثانية مغطاة برمل كثيف وبطمي مما صعب عليَّ تأكيد شكلها أو شخصيتها. لقد تكوَّن لديَّ الرأي، على أي حال، مهما كانت أهميته، أن هذه قد تكون تركيباً على هيئة قبة ربما كان الكتدرائية المسيحية التي سمعنا عنها، أو كانت معبداً وثنياً قديماً.

كان سطح هذين الموقعين وما جاورهما مبلطاً بألواح كبيرة من بناء. ويربط ممشى أيضاً مبلط القصر المركزي مع بوابة أيضاً مبلطة وملحق بها غرف حراسة على الجانبين، في وسط الجدار الغربي. كما أن هنالك مدخل ثالث (في الجدار الغربي) محاط بواسطة الجزء الثاني وحصن للقلعة، كما توجد، على أقل تقدير، أربعة مداخل ذات أهمية ثانوية فيما يبدو في مناطق أخرى من الجدار الدائري. تحدى المستوى التدميري للمساحات الداخلية كل محاولة لي لوضع فكرة عن التنظيم الذي كان عليه البناء ولقد اكتفيت بالتوضيح على المخطط (مخطط رقم ٢) مثل هذه الأجزاء من الجدار، داخلية وخارجية كما يمكن التعرف عليها في موضعها الأصلي. تكفي الصور الضوئية (شكل٢٣، ٢٤) لتعطي القارئ فكرة عن الشكل الحالي للتذكار العظيم للعصور القديمة، والتي قد تتكشف أطلالها لعالم آثار محظوظ في المستقبل بمكسب عظيم. أود أن أضيف هنا فقط أن القلعة كانت، فيما يبدو، منفصلة عن المدينة بخندق مائي عريض وذلك لأن الجدارين الغربي والجنوبي ينفصلان بمسافة ٥٠ ياردة دون الزاويتين الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية للقلعة بالتتالي.

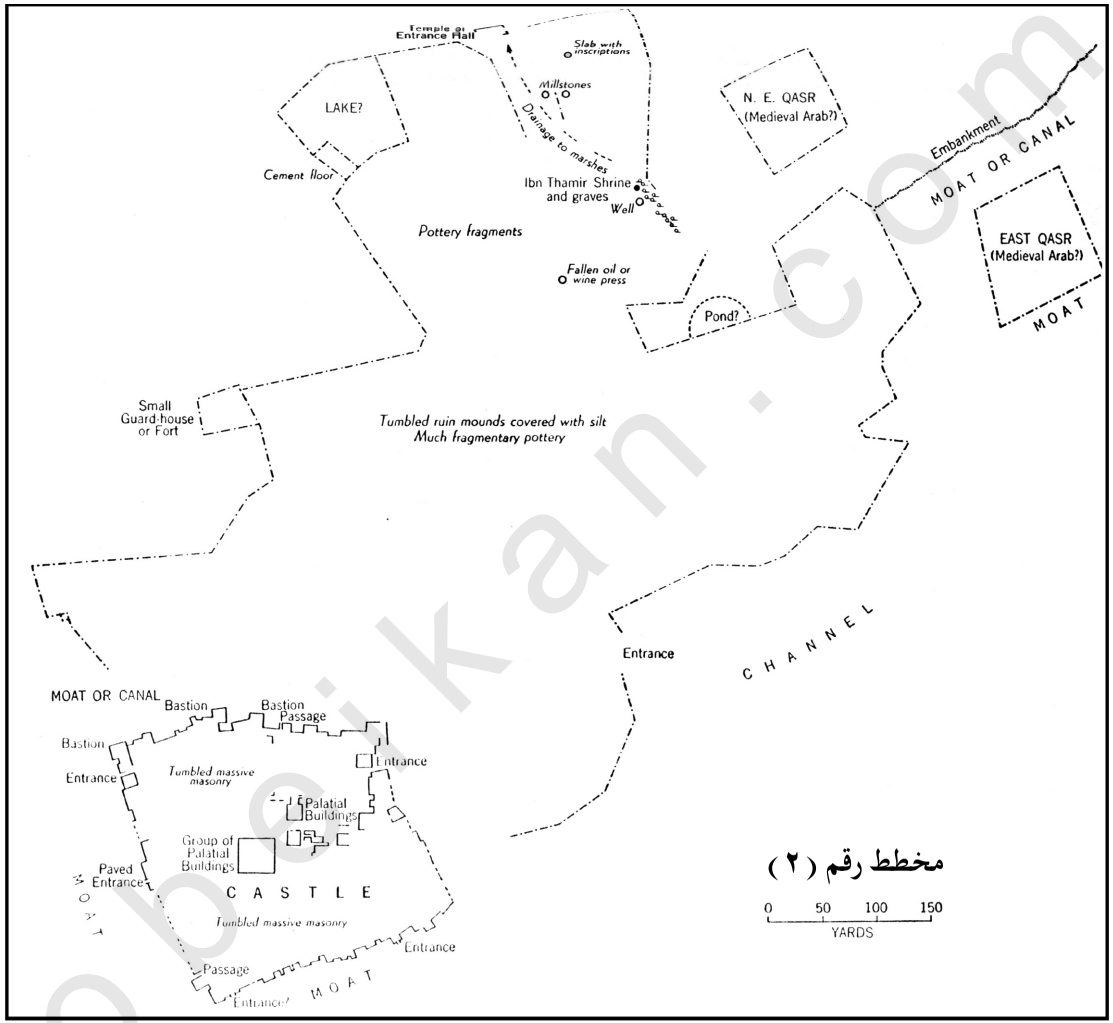

أطلال أخدود في وادي نجران

obeikan.com

يمكن التعرف على جدار المدينة، في أي موقع آخر، مع وجود بعض الفجوات ذات الأهمية المتدنية، ومتابعتها بوضوح في سور واقٍ من كسارة الحجارة ومواد البناء، مغطاة الآن في بعض الأجزاء بالرمل والطمي. لم تكن هذه أبداً شبيهة بجدران القلعة، ويبدو أنها نمت طبيعياً بلا شكل وبلا مخطط، في استجابة لا تساع المدينة لإيواء سكانها المتزايدين. ربما لم تكن بالجدران، بل كانت أشبه ما تكون بالسدود، لمنع تسرب مياه السيول إلى داخل المنطقة السكنية. تمتد مثل هذه السدود إلى مسافة تجاه الشمال الشرقي من عند الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة في استمرارية مع الخندق المائي أو القناه التي تجري على طول امتداد الجدار الشرقي. لم يكن هذا الجدار مستقيماً بأية حال، ويبدو وكأنه قد تم اختراقه بكسر بوابة واسعة. يلتف الجدار من عند هذه الزاوية الشمالية الشرقية وبغير انتظام حول فجوة عميقة هي أقصى بقعة شمالية في المدينة. يبدو أن هذه الثلمة في شكل المنطقة المأهولة كانت مستنقعاً قديماً أو بحيرة، ذلك لأن الجزء الداخلي منها يبدو وكأنه يمثل بركة أو مستودع للماء.

يقع بئر قبيبات داخل سور المدينة بجوار هذا الموقع والذي لا يزال يعمل داخل مزرعة لأشجار عَبَل جميلة، والتي بجوارها تقع بقايا الضريح المشهور وأطلال القبة المشهورة باسم عبدالله بن ثامر. الفقيه الديني المحلي الذي يطابق بالروايات المحلية الأمير المسيحي أو أسقف نجران الذي احترق مع أتباعه الأوفياء. يستحيل التأكد من هذا إلا بإجراء حفريات، إن كان صاحب هذا القبر هو حقيقة أو كان رجلاً آخر مسلماً في وقت متأخر، غير أنه لا يوجد ما هو لافت للنظر فيما يخص الأطلال. كان الضريح مبنياً من مواد قد سرقت من حطام المدينة القديمة إنه «وليّ» أو معبد على جانب الطريق وقد تمت زخرفته ببناء قبة عليه.

كان هذا الضـريح في الأزمان اللاحقـة مزاراً للمعتـقدين في مقـدرة القديس الميت أن يتوسط نيابة عن تابعيه، ولهذا السبب فقد أزالته السلطات السعودية. وبناءً على قرب مشارب الماء الجيدة على الطريق الرئيس الذي يقود من نجران إلى الفرع، فإن سكن حـارس الضريح والقبـة قد حولتـه السلطات أيضاً إلى مركـز للشرطة. استقر معسكري في أرض مكشوفة إلى الـشرق من مجموعة أشجار العلب، وذلك أثناء إقامتي القصيرة في منطقة الأخدود. فاتني أن أذكر أن الضريح بمرور الوقت قد أصبح نواة لمقبرة كبيـرة، والتي منها وصلتني بعض الشواهد المكتوبة. لم تكن هذه ذات أهميـة كبـيرة لي، فهي مـجرد شـواهد نزعت من عند قبـور حديثـة للعرب وتحتوي على كتابة عربية عادية.

تبين الأشجار التي ورد ذكرها خط تصريف للمـياه يجري في ميلان من عند المستنقـع إلى ثغرة في الجدار الشـمالي للمـدينة على بعد ١٠٠ ياردة من طرفـها الشرقي. يقف معـبد، أو بوابة احتفالات، خارج حدود المدينة ويقـوم بتغطية هذه الثغرة جزئياً، وكان تصميم الدور الأرضي للمعبد أو البوابة من جدران من حجارة جيرية وكانت الأرضية لا تزال واضحـة وكذلك جدار البهو الواضح، يبدو أن هذا البهو يقود مباشرة إلى أطلال ابن ثامر. تقع على المسافة شرق هذا البهو ألواح من حجارة جيرية عليـها نقوش حميرية ربما ليست في موقعـها الأصلي- وكما يوجد حجرا رحى كبـيران جداً -لعلهما لعصارة زيوت-، بينمـا كانت الأسطوانة الفعلية لواحدة مـن معاصـر الزيوت هذه ملقيـة على بعد ١٠٠ ياردة إلى جـنوب شرق ضريح ابن ثامر وسط فخار كثير مكسـر، الذي يغطي الركام المدمر بصفة عامة كل المنطقة المأهولة في هذا الجـزء الشمالي للمـدينة. يجري الجدار الشـمالي من عند المعبد الذي يقع بجوار المدخل إلى مسـافة ٥٠ ياردة إلى حافة ما يمكن تصوره بأنه

بحيرة صناعية كبيرة. كانت مساحة هذا المنخفض، حوالي ١٠٠ ياردة مربعة، تحتل الزاوية الشمالية الغربية لمساحة المدينة وكانت مسورة بالجدران من كل الجهات. تحتل أرضية صغيرة من الأسمنت، طولها ٤٠ قدماً وعرضها ٢٠ قدماً، الزاوية الغربية لهذه البحيرة ولا أستبعد أنها كانت مزخرفة بشيء في طبيعة المصيف لمتعة الزوار. لا يزال الامتداد العريض للجدار الغربي من عند هذه البقعة وإلى موقع الكسر في الزاوية الشمالية الغربية للقلعة، مشاهداً، وفي وسطه معالم قلعة صغيرة أو منزل للحارس بارزاً إلى الخارج. يحتل ركام الحجارة كل وسط المدينة الداخلي، وبقايا مواد بناء من نوع عادي، وكسور من قطع أثرية. كانت الفوضى ضاربة إلى الحد الذي يستحيل معه تكوين فكرة عن مخطط الشوارع ومناطق السكنى للناس العاديين، وعلينا أن ننتظر مجراف عالم الآثار قبل المغامرة بوصف واحدة من أعظم العواصم.

كان مما تبقى من آثار الماضي، إلى جانب النقوش التي جمعها يوسف هالفي، وشخصي، من هذا المكان ومن أجزاء أخرى في الواحة والتي انبثقت من نجران تشتمل على رأس أسد من البرونز وكف حيوان وقطعة من ميزاب معبد، أيضاً من البرونز وعليها نذر منقوش. كل هذه محفوظة الآن في المتحف البريطاني ويعزى الفضل ويعود الشكر لصاحب السمو الملكي الأمير سعود، والذي قدمت إليه أثناء حملة اليمن عام ١٩٣٤م. لا يُعرف تماماً مكانها الحقيقي. غير أنه يمكن القول باطمئنان أنها كانت تزين معبداً في الأخدود. وجد رأس أسد آخر مماثل، في حجَّة غير أنه لا يتطابق تماماً مع أسد نجران، وله صورة في صفحة ٨٩ من المجلد الثاني (Vorislamische Allertumer)، لمؤلفه دكتور كارل راثيانز Rathjens واتش فون فيسمان H.Voh Wissmann، وقد أوردا أن اكتشافهما هذا يكشف

إثباتاً لتأثير إغريقي[١] وهو أكثر الأشياء حداثه من بين ما تم اكتشافه في معبد حجة. هذا يفيد بأن الرأس الذي اكتشف في حجة يعود تاريخه إلى ما بعد ظهور المسيحية، وربما يفترض أن الرأس الذي اكتشف في نجران له التاريخ نفسه. غير أنه، على أية حال، يبدو أكثر بدائية، ويختلف عن الآخر بأن له عرف أقل توهجاً ويظهر وكأنه أكثر رزانة، عدا الحواجب التي تبدو مروِّعة. كان الرأس في كلا الحالين مجوفاً وينقل دكتور راثيانز عن مصادر قديمة أن مثل هذه الرؤوس كانت توضع عند زوايا سقف المعبد لحجز الرياح، والتي حين تعبر داخل تجويف الرأس تصدر صوتاً يشبه الزئير. لقد وجدت، في الجانب الآخر، رؤوس مثل هذه محشوة حسب اعتقادي، بمادة سوداء قارية.

يصعب تقدير مساحة المدينة بدقة ذلك لأنها ذات شكل غير منتظم، غير أنه يمكن القول بأنها تقدر بخمسة وسبعين هكتاراً باستثناء قلعتين عربيتين، لعلهما من العصور الوسطى، تقعان خارج المحيط عند الطرف الشمالي الشرقي على جانبي القناة التي ورد ذكرها. أكبرهما تغطي مساحة ٢,٥ اكر، والأخرى تغطي مساحة اكرين، وليس لأي منهما أهمية تذكر. تمتد مقبرة كبيرة في وسط السهل بين المدينة نفسها وحاجز من جبلين هما جبل الحمرة وجبل السودة وتوجد على قمة الجبل الأخير، الذي يطل على الممر الذي تسلكه القوافل النظامية إلى واحة الفرع قلعة كبيرة، لعلها من العصور الوسطى، مبنية من بازلت أسود، يتم تحجيره في الموقع نفسه. يكمل هذا إلى جانب النقوش على الصخور التي ورد ذكرها على صخور الحجارة الرملية الممتدة بين تل أم خرق وممر نهيقة، وقبور ردم سرو، الصورة لما قد

(١) تم اكتشاف أسدين برونزين كاملين من الطراز الإغريقي في أطلال وادي بيحان بواسطة حملة أمريكية. (المؤلف).

تبقى على سطح نجـران القديمة. كمـا ويكّون مساحـة الكعبة في تسـلال، وسد الجلاد جزءاً من الصورة نفسها غير أنني تناولتهما بشمولية في موقع آخر، بينما في الغريري في الجزء الشـرقي من القابل توجد مجموعة أطلال تحـتوي على بلوكات ذات نقوش، من حجر جيري وقطع مبعثرة أثرية، لما قد يكون معبداً للقدماء.

تحـصل هالفي على اثني عـشر نقـشـاً من منطقة نجـران، وقـد قمت أيضـاً باكتشاف معظم هذه، بينما أفرزت دراساتي واستكشافاتي في المنطقة كلها، بما في ذلك الحجـارة الرملية على الجانب الأيمن للوادي، مـا لا يقل عن ١٣٢ مجمـوعة منفصلة من النقـوش، تشتمل على ٢٠٨٠ حـرفاً -في مقابل ١٠٠ أو مـا يقارب ذلك من جانب هالفي-. اشـتملت خمسة من هـذه المجاميع على ١١٥، ١٣٤، ١٤٠، ١٦٨، ١٨١ حرفاً، بينما كانت هنالك نقـوش أخرى تحتوي كل منها على خمسة حروف أو أقل. احتوت المجموعة كلها على سجلات حميرية وثمودية إلى جانب بعض النقوش العـبرية والعربية -ذات أهميـة قليلة وتاريخ حديث-، قمت أيضاً بتسـجيلها. لم تتضمن هذه المجمـوعة من النقوش الحميـرية والثمودية التي جمعتها بأعداد كبـيرة من وادي حبونا ومواقع أخرى خارج وادي نجران. كل هذه المادة المنقوشة تم تقديمها إلى الخبراء للمعالجة، ولا أستطيع عمل شيء إلاَّ أن أعلق على بعض التصاوير الـتي وجدتها على جدران قلعة الأخـدود وما جاورها وعلى أسطح سلسلة الجبال المثلمة.

تتطابق العديد من النقوش التي وجدها هالفي مع ما تحصلت عليه أنا بالقرب من الزاوية الشمالية الشرقية للقلعة، كـما قمت بنسخ لتصوير لطيف غير أنه بدائي وجدته على صخور منفـصلة، كان الرسم لطفل (أو رجل) يبدو وأنه يلاعب كلباً ماسكاً أحد الكفين الأمـاميين بيده اليمنى ودافعـاً رأس الكلب إلى الخلف بيسراه.

وجدت هنا أيضاً صخرة تحمل زخرفة لرقعة الداما كانت بعض مربعاتها فاضية -اللون الرمادي للصخرة- بينما امتلأت مربعات أخرى بدوائر أو أصفار عديدة بلون أكسيد الحديد. توجد في الجزء الأسفل للجدار صخرة منفردة ضخمة سوداء، من مادة بناء أبعادها ٣٠٥ x ٩٠ x ٤٧ سنتيمتراً، مشذبه في بدائية، غير أنها لا تحمل أي ضروب من ضروب الزينة، بينما هنالك صخور أخرى أقل حجماً في هذه المنطقة يبدو أنها كانت معدة بكل وضوح لنوع من الزخرفة، حيث إنها كانت تحتوي على ألواح مستطيلة ملساء على السطح المكشوف. كما كانت هنالك بلكات صغيرة مشطوفة الحافة بعناية، كما وجدت بلكتان كبيرتان من مادة بناء بالقرب، الأولى منها أبعادها ٢٥٧ x١٠٠x ٤٨سم والثانية أبعادها ٢٧٠x٨٤x ؟سم.

يمكن للمرء أن يخمن في وجود هذه الكتل البنائية، أنها ربما كانت لإنشاء معبد أو الإقامة مبنى آخر مهم أثناد عملية البناء، حينما وقع حدث ما اعترض مسار العمل فتوقف. كان هنالك وبالفعل نقش (هالفي رقم ٥٩٠) على بلكة معدَّة بعناية أبعادها ١٧٢x٦٠سم على قمة الجدار الخارجي، أو الطبقة الثامنة، بالقرب من بروز على الجدار الشمالي والذي تعلوه الآن طبقة ضخمة من الطمي تنمو فوقه شجرة أراك عملاقة.

توجد بالقرب من الجزء الناتئ التالي ناحية الغرب، وقريب جداً من الأول، بلكة ساقطة كبيرة، ملساء وتحمل انطباعاً شاحباً لغزالين أو وعلين. كما حملت صخرة منفصلة أصغر تقع إلى جوارها، صورة لجمل، وأخرى لحيوان غير معروف -ربما كان كلباً- كما حملت صخرتان بالقرب من هنا خربشة شاحبة لعدد من الجمال، وحملت صخرة أخرى صورة لرجل رافعاً يديه. كان هنالك عدد من بلكات أخرى عليها خربشات مماثلة -وشاحبة جداً-، وخطر بذهني أن الصور في

كل هذه الحالات، قد أضيفت في وقت لاحق بعد أن تم إعداد البلكات لأمر آخر أكثر تأثيراً.

كشفت المباني للجزء الناتئ عند الطرف الشمالي الغربي للقلعة بعض آثار لنقوش (مكسرة) وصوراً متضمنة صورة لثعبانين يبدو أنهما يهاجمان بعضهما البعض، والمغزى مشكوك فيه. وصورة ربما تكون لرجل في قارب أو على نعامة. لقد كان محيط القلعة خالٍ من الرسم والزخرفة عدا ما ذكر أعلاه. وكان البناء المركزي للقصر يمثل مساحة مستطيلة أبعادها ١٨ x ١٥ ياردة وقد صمدت جدرانه إلى ارتفاع ٢٠ قدماً، وهي مبنية من ثمان طبقات من مواد بناء مشذبة بعناية ومتوسطة الحجم. احتوت معظم هذه البلكات على نقوش أو صور، غير أن الثلاث طبقات السفلى كانت خالية من الزخرفة. يوجد في بلكات في الطبقة الرابعة في الجدار الشمالي رسم لقدم إنسان وزوج من ثعبانين مجدولين مكررين كما كان هنالك رسم لجمل، بينما كانت جوهرة المجموعة كلها هي حصان عربي تم رسمه بدقة.

يوجد على الجدار الشرقي في الطبقة الثالثة رسم ليدين بشريتين منفصلتين، كانت إحداهما ذات الأصابع متجهة إلى أعلى بينما تتجه أصابع اليد الثانية إلى أسفل، بينما في الجدار الجنوبي يوجد رسم آخر ليد مشابهة غير أن الأصابع كانت ممتدة أفقياً. يوجد بناء آخر، إلى الشرق من هذا القصر ومنفصل منه بشارع عرضه ثمان خطوات، وهو قصر ضخم ومدمر تماماً تقريباً عدا الطبقات الثلاثة السفلى. كما توجد مجموعة أخرى من مبانٍ ضخمة إلى الشمال من هذا، غير أن الجدران الضخمة البناء كانت خالية من الزخرفة أو النقوش. لابد وأن كل هذه المباني قد كوّنت تحت كل الاحتمالات، مجموعة واحدة فخمة، تحتل الجزء الوسط والشمال

الشرقي لسور القلعة. يمكن أن أذكر في ختام هذا الحديث، صمود الجدار الغربي، بين الأطلال الساقطة إلى غرب القصر المركزي، لبناء آخر فخم ومشذب بعناية، وتوجد على طبقته العليا بلكة عليها نقوش يبدو أنها لاسم رجل نبيل، هو تيم الات وتر. كما كان هنالك احتمال اسم ملكي آخر ورد في أحد النقوش (هالفي رقم ٥٨٣) بالقرب من الزاوية الشمالية الشرقية للقلعة هو عم كرب.

قد تكون القصور التي وصفت بأنها تابعة للقرون الوسطى في منطقة المدينة، قد قامت هي نفسها على أنقاض أطلال أقدم منها. كانت القصور مختلطة الداخل من كتل من طمي وجوانب مكشوفة توضح مواد بناء حجرية ولبن محروق بحرارة الشمس، وطوب محروق بواسطة الأفران. وتكسو سطح هذه الأطلال كتل من زجاج وفخار، على درجة أقل مما يشهد في المدينة نفسها، بينما يوجد في مركز القصر الشرقي ركام لحجارة يغطي ما مساحته عشر ياردات مربعة والتي قد تكون جناحاً لمستودع أو لإعاشة.

تقع إلى شمال السياج الذي يفصل بين القصرين مساحة ضخمة مكشوفة والتي ربما كانت ساحة للسوق المحلي أو أرضاً للمعسكرات. كما توجد بالقرب منها بقايا ضئيلة لمواد بناء وتنتشر فوق المساحة كذلك قطع أخرى مكسرة، بينها حجرا رحى كبيرين قطر الواحد منهما ١٣٤سم. ذكرنا من قبل حجارة رحى تم اكتشافها في الزاوية الشمالية للمدينة، بالقرب من المدخل أو «المعبد» وتوجد إلى جواره بلكة بناء ضخمه (أبعادها ٢٥١x٨٠ x٢٧سم) وهي مرفوعة عن سطح الأرض بعدد من الحجارة الخشنة إلى ارتفاع ١٨ بوصة. لا يحمل هذا اللوح أي نقوش أو صور، غير أنه يوجد بالقرب منه حجارة جرانيتة لعمل الأساس، مشذبة بعناية، لبناءين صغيرين يفصلهما ممشى، ويبدو أن هذا الممشى يقود إلى اللوح

الكبير. كما توجد على الجانب القريب (أو الممشى) لهذا الأخير قطعتان كبيرتان للوح مكسور يحمل اللفظ «وضب» (ربما اسم إله) إلى جانب رسم بدائي للماريا والأسد والجمل.

يبدو أن كل هذه الأرض التي تقع حول المدخل الشمالي وكأنما قد أعدَّت موقعاً لمجموعة كبيرة من المعابد. ولربما كانت على اتصال مع مجموعة الأطلال الصغيرة حول قصر الغريري المدمر، متضمنة ألواحاً كبيرة من مواد البناء وكان واحد منها يحمل نقش (هالفي ٥٩١) متضمناً اسم الآله «وضب». كان اللوح نصف مدفون في التراب وأبعاده ١٧١ x ٧٧ x ٤٥سم وهو من الحجر الجيري، مثله مثل غيره، غير أنني وجدت هنا، كما في منطقة المدينة، كمية كبيرة من مواد البناء الجرانيتية. أشار هالفي إلى هذا الموقع بأنه قبيبات، غير أنه يبدو وكأن هذا الاسم غير معروف هنا، برغم أنني قد سمعت مرة كلمة قبوه والتي ربما تشير إلى بئر محلي. تسمى منطقة نقطة الشرطة عند طرف المدينة بجوار البئر بابن ثامر بصفة عامة، بينما الركام داخل المدينة يطلق عليه اسم «المدينة». وتستعمل الشخصيات رفيعة الثقافة اسم «الأخدود» الذي ينطق أحياناً أختون.

أشرت من قبل إلى المدينة العظيمة التي تقع على السهل بين المدينة والتلال. يمر طريق الفرع الجديد عبر هذه المدينة إلى سفح سلسلة البازلت التي تسمى السودة، ثم يصعد إلى ممر منخفض تم يصعد أكثر إلى وادي اسقام في طريقه إلى ممر ذات على في السلسلة الرئيسة وإلى تل أم خرق. تشمخ قمة جبل السودة إلى ٥٠٠ قدم فوق مستوى السهل وتحمل على سطحها مجموعة غرف تشبه الثكنات وكأنما هي قصر منتشر في غير ما نظام. وجدت عند أسفل السلسلة بعض المخربشات التي تآكلت إلى حد بعيد، وإلى الغرب قليلاً، وبالقرب من قاعدة

سلسلة الحمـرة - تكوّن السلسلتان حـقيقـة، سلسلة واحدة بارزة من خط الجـبال الرئيس - فإن الصخور الجـرانيتية هي بالفعل منقرة بالكهـوف وتحمل نقوشـاً قليلة -واحدة عليـها نقـوش حميـرية وأخرى عليـها نقوش كـوفية-. يحـتفظ الحـجر الرملي، من السلسلة الرئيسـة نفسها من عند أم خـرق وحتى رأس مسيل نهـيقة، كما ذكر سابقاً، بمجموعة ضخمة من الأشكال والنقوش. لقد كانت نسبة النقوش عند سفح مسيل نهيـقة أكثر من نسبة الصور، بينما كـانت نسبة الصور التي توجد فعلاً، -جمال، بشر، ثعلب وعل تحيط به الكلاب، إلخ- ذات أهمية قليلة بصفة عامة. كان الاستثناء الوحيد هو رسم لثور رائع من النوع ذي السنام، ومعه نقش، يملآن لوحاً من الصخر يبرز فوق حافة الجرف حكماً بكثافة النقوش التي توجد في هذا الموقع -بما في ذلك الكهوف أو مـلاجئ عرير وقروه-، فلابد مـن الافتراض أن هذا المكان كان مدخلاً رئيساً لـلمدينة القديمة. علماً بأن الطريق الذي يقود إلى السهل صعب وخطر جداً، أو كان مكاناً مرتفعاً محلياً يزار لأغراض احتفالية. إن كشف تفسير كل هذه النقوش سيؤدي بالتأكيد إلى إضافة ما إلى معرفتنا عن نجران القديمة.

توجد المخربشات والنقـوش، ولكن في ندرة، في مناطق أخرى من الواحة. كما يوجد على جدران البرك الصخريـة، في مسيل فوق شعيب برّان، مثلاً -وهو موقع مفضل لهواة التنزه في الأزمان القديمة- بعض الحروف الحميرية وبعض صور غير واضحة لحيوانات مع توقيعات عديدة لشـخصيات مكرمية يعود تاريخها للقرن الثاني عـشر الهـجري. كان أول تـاريخ رأيته هو ١١٠٧هـ (١٦٩٦م) بينمـا كان آخرها هو ١١٧١هـ أو ١٧٥٨م. كانت بعض التوقيعات غيـر مقروءة حقيقة، غير

أن الأسماء التي قمت بتسجيلها كانت: سلمان بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المكرمي، وهبة الله ابن إبراهيم (كلاهما عام ١١٣٨هـ)، وعلي بن حسين بن علي المكرمي في السنة نفسها، ومهدي بن جعفر هبة الله (١١٥٣هـ)، وحسين بن سلمان بن أحمد (١١٧٠هـ) وأخيراً حسن علي بن هبة الله المكرمي ١١٧١هـ. لقد تحدثت عن القبور القديمة في هذه المنطقة، والتي يعزون بناءها إلى بني هلال، في موقع آخر.

سجلت في برك وهي بروز جرانيتي منخفض يقع بالقرب من بطن السيل، أسفل الوادي، عدداً من الرسوم والخربشة الثمودية وكانت ذات أهمية قليلة. اشتملت الرسومات على الجمال، وعلى رجال يمتطون ظهور الخيول وأشياء من هذا القبيل. لا بد وأن هذه الصخرة كانت منذ القديم موضعاً مفصلاً للبدويين المجاورين لها بسبب كثرة ما بها من البرك الصخرية، والتي، على أية حال، كانت جافة أثناء زيارتي في شهر يوليو. توجد صور أكثر أسفل الوادي على الصخور حول بئر الخضراء وعدد قليل من النقوش (عربي وحميري)، غير أنني كتبت عنها بما فيه الكفاية في كتاب آخر (بنات سبأ). أستطيع أن أنهي هذا الفصل الخاص بموضوع نجران القديمة بالتعبير عن الأمل أن تكون دراسة السطح التي استطعت أن أقوم بها خلال إقامتي القصيرة التي تزيد قليلاً عن الشهرين سيكتب لها يوماً ما أن تغوص إلى أعماق التربة بواسطة علماء الآثار الأكفاء، والذين سيكافأ جهدهم بكل تأكيد باكتشافهم لمعلومات أكثر نحتاج إليها لتملأ الفراغات في سجل تاريخ الجزيرة العربية القديمة.

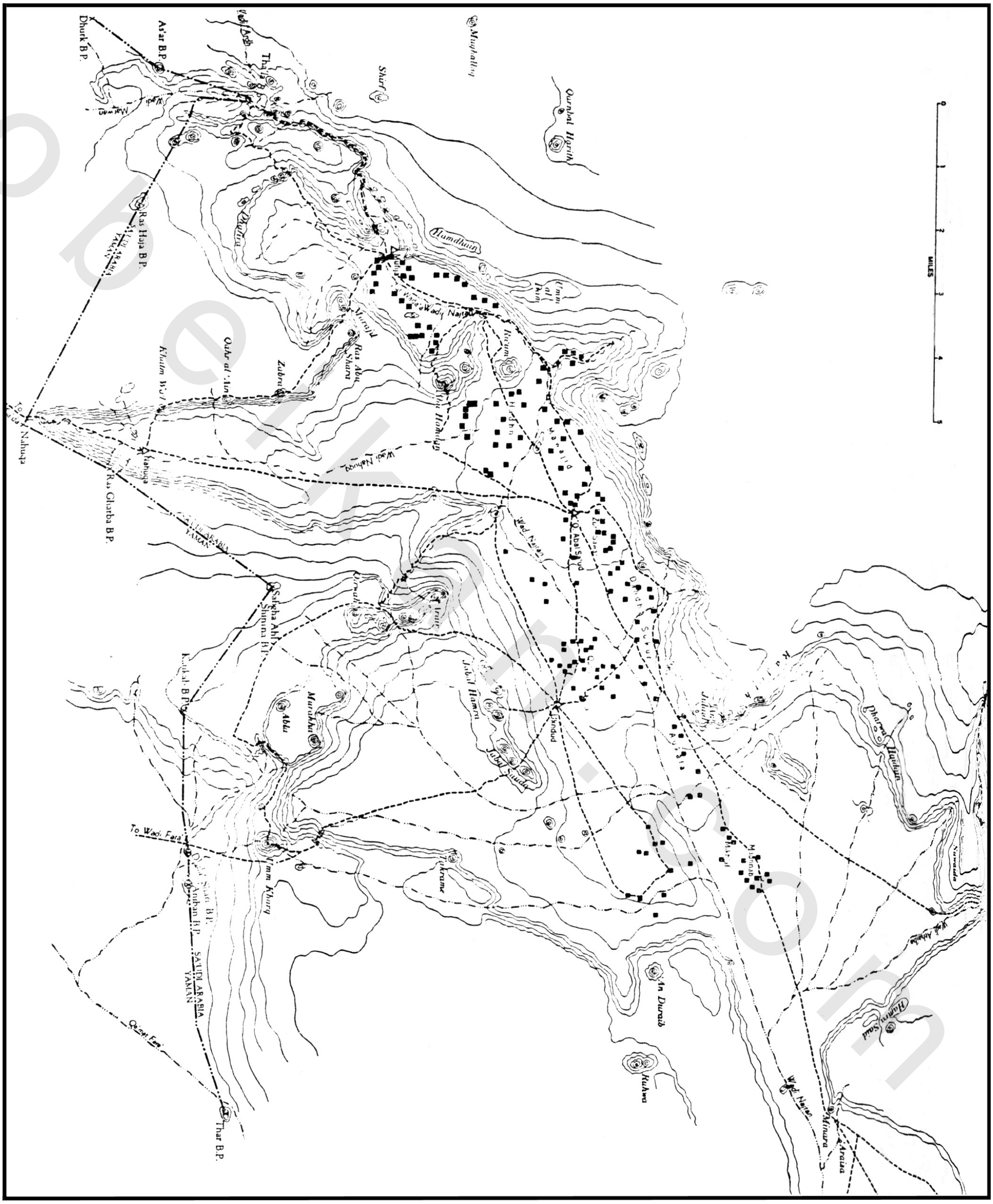

وادي نجران. المربعات تشير إلى مراكز التجمعات السكانية

obeikandl.com